428

شادي عبّود

العاشقون

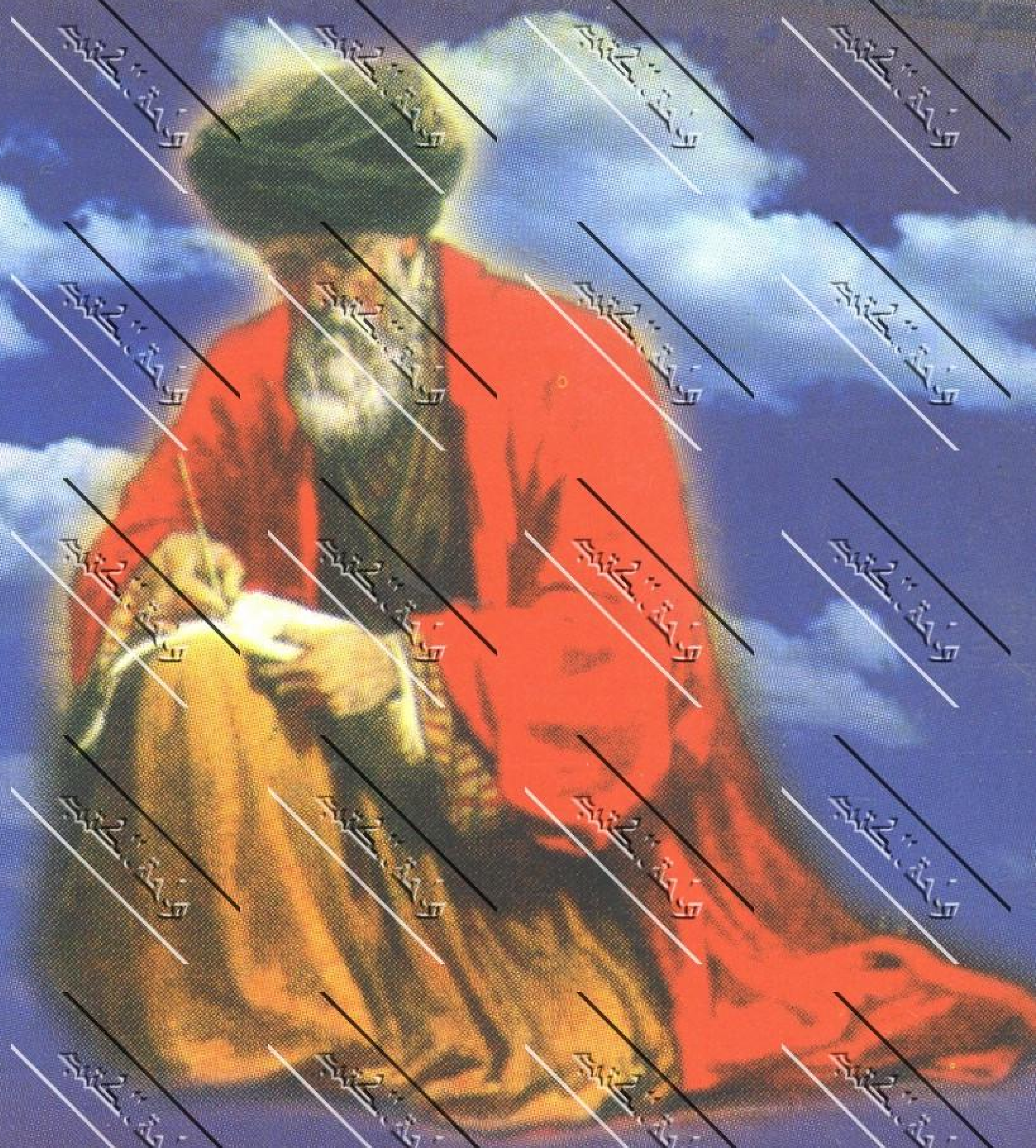
A.S.

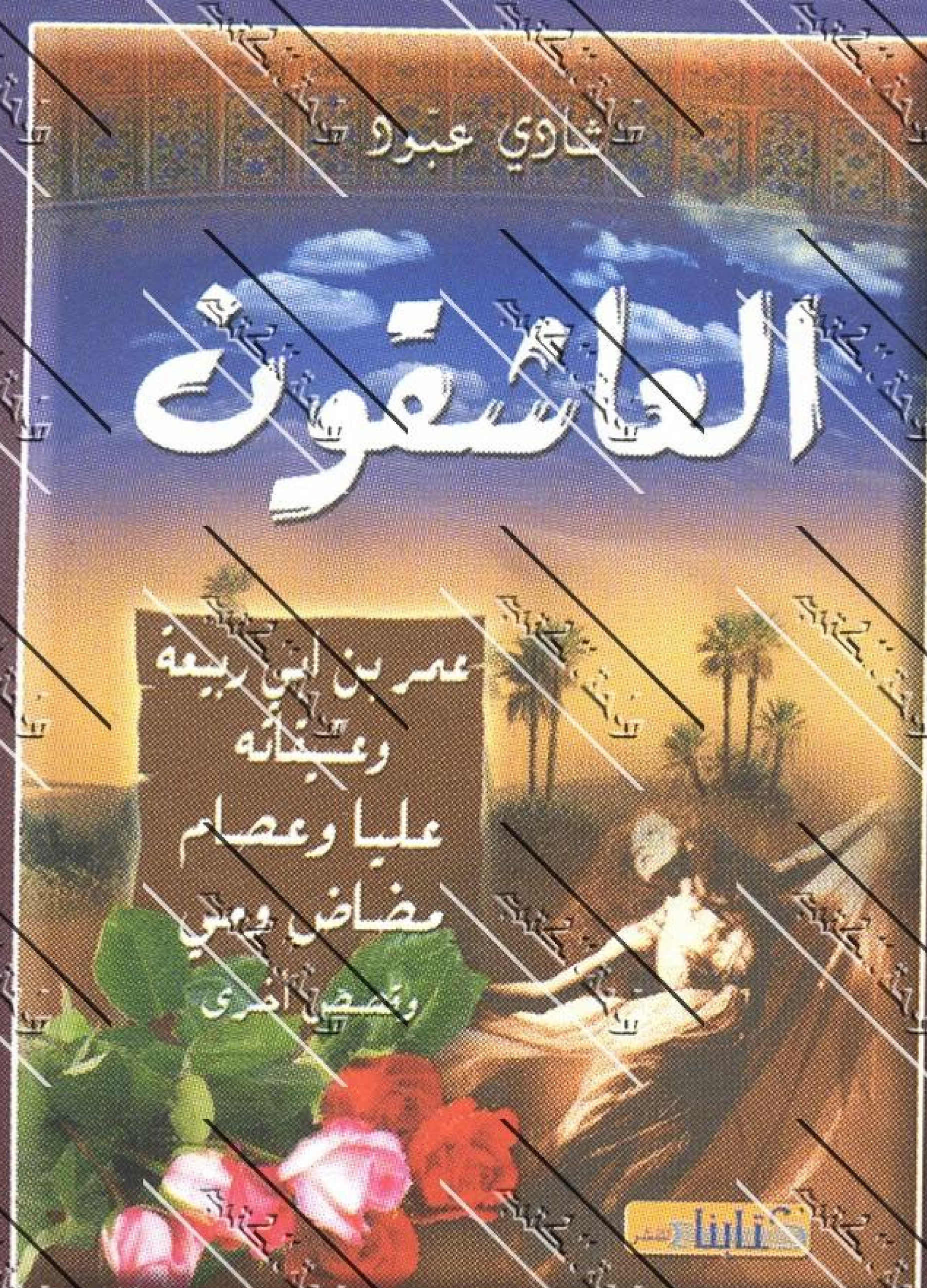
جميل بثينة
قيس لبنى
عنترة وعبلة

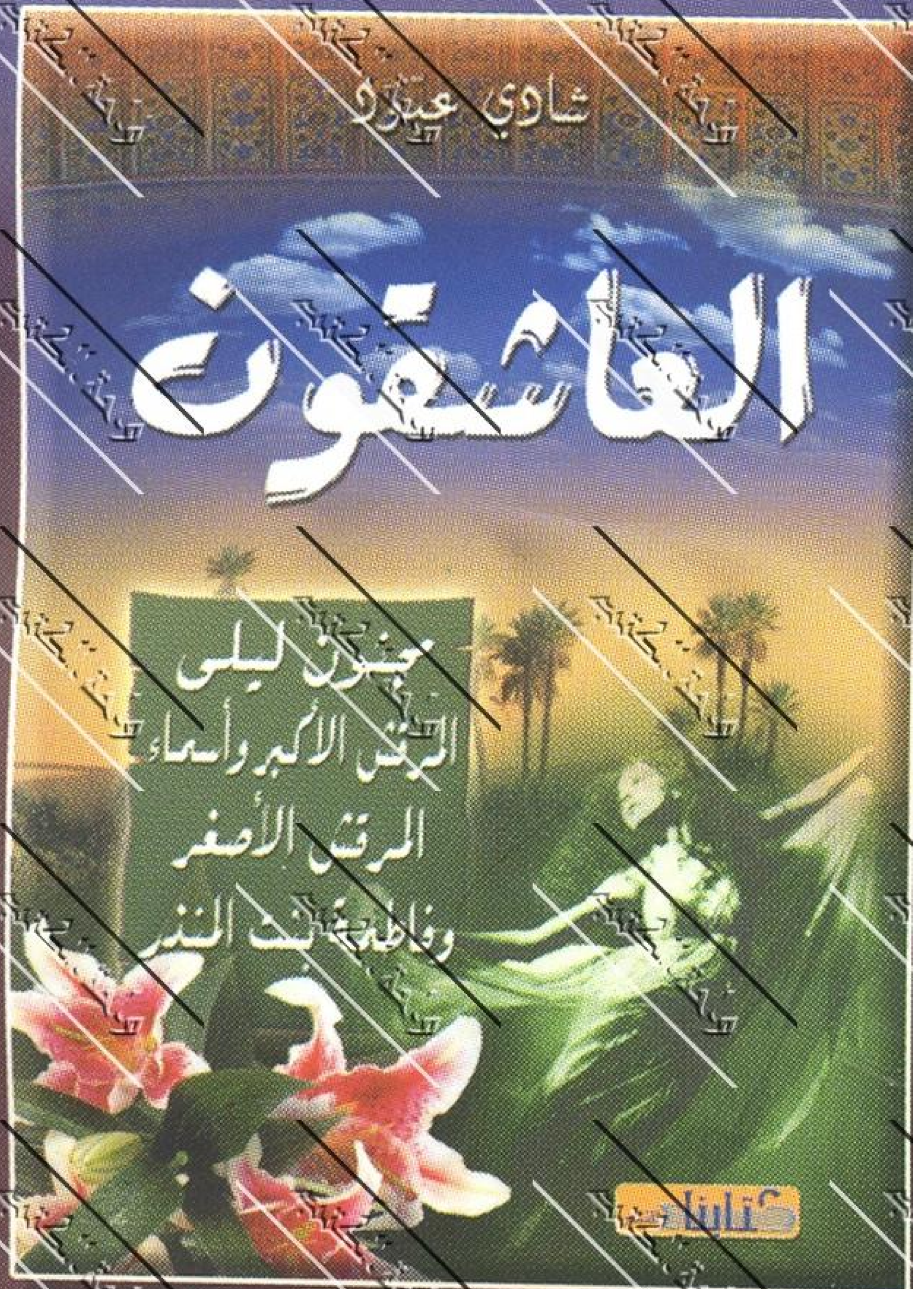
كتابنا للنشر

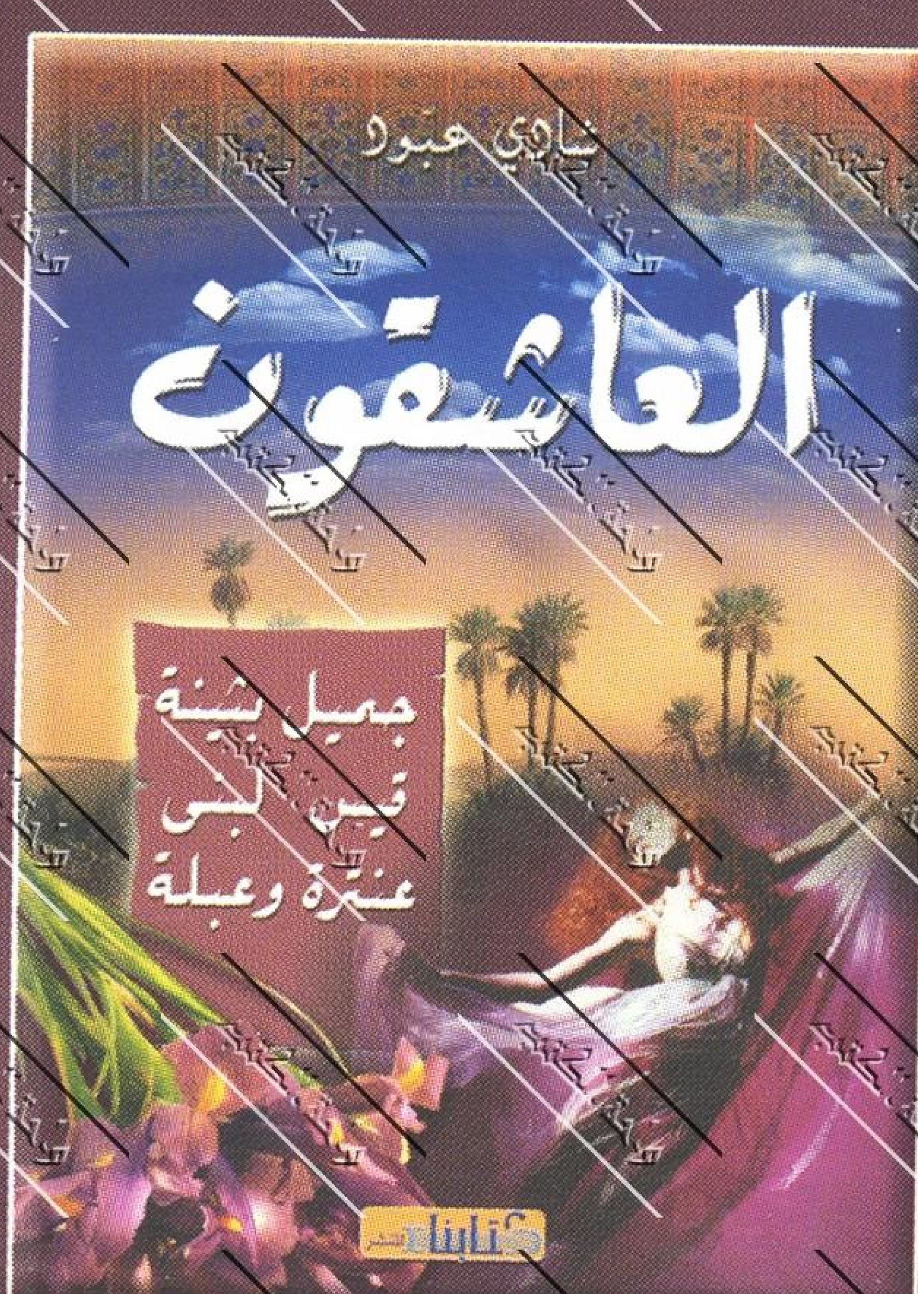
جميل بثينة
قيس لبنى
عنترة وعبلة

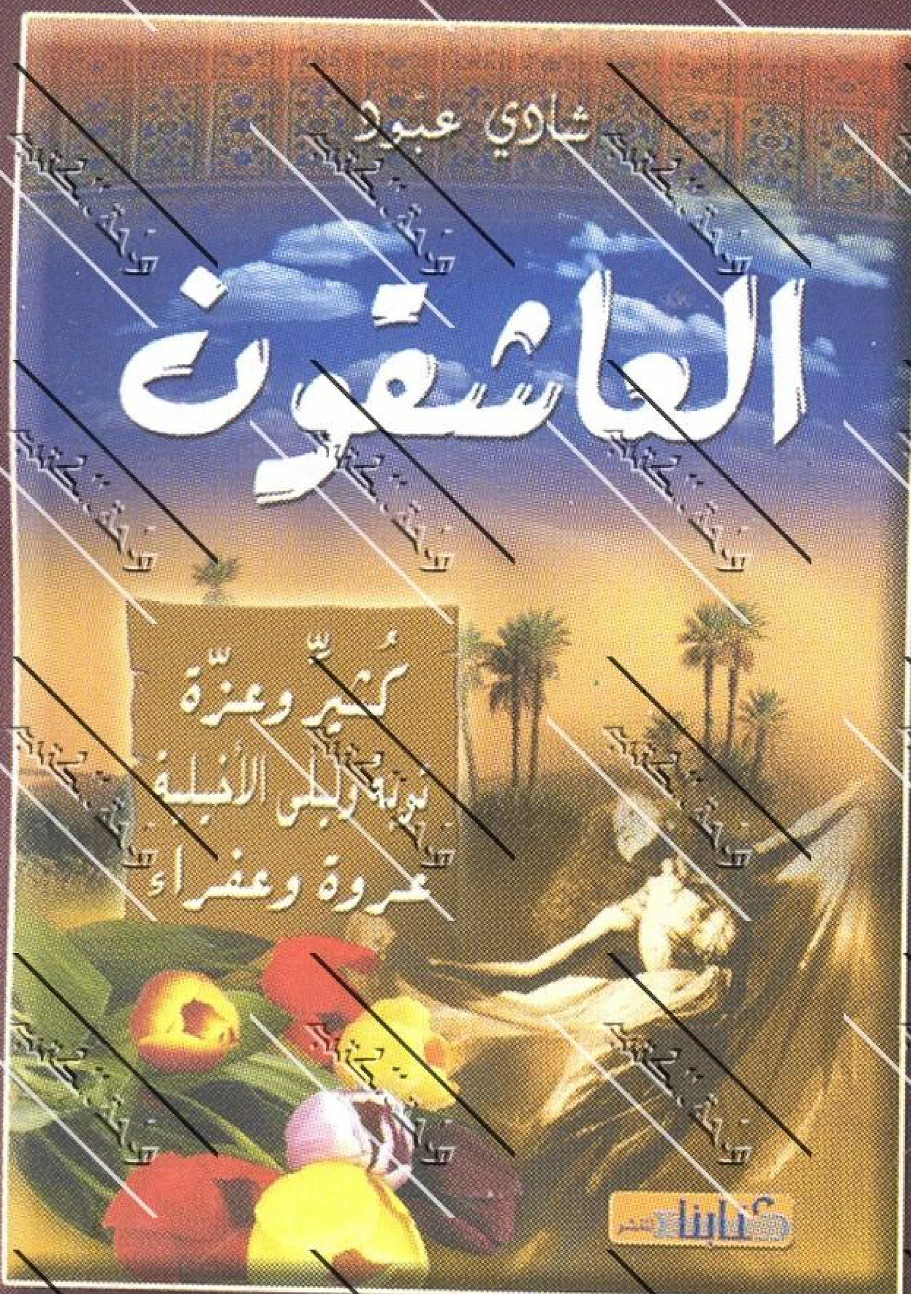
العاشقون











Wed.
7/5/2014

كتابنا للنشر

«العاشقون»

جميل بثينة

و

قيس لبنى

و

عنترة وعبلة

مقدمة

تتضمَّن هذه السلسلة بأجزائها الأربعة، أخبار العشّاق العرب، وخاصَّةً قصص حبّهم، وما حُكي من أخبار مع حبيباتهم، كما تتضمَّن أجمل أشعارهم الغزليّة، سواء كانت هذه الأشعار من ضمن سياق أخبارهم، أو مُسْتقاة من دواوينهم الشعريّة، وقد تضمَّنت أخبار العاشقين التالية أسماؤهم:

1- الجزء الأول: مجنون ليلى، والمرقش الأكبر وأسماء، والمرقش الأصغر وفاطمة بنت المنذر.

2- الجزء الثاني: جميل بثينة، وقيس ولبنى، وعنترة وعبلة.

3- الجزء الثالث: كُثيِّر وعزَّة، وتوبة وليلى الأخيلية، وعروة وعفراء.

4- الجزء الرابع: عمر بن أبي ربيعة وعشيقاته، وعليا وعصام،

ومضاض ومي، وقصص أخرى.

وقد اخترنا الأخبار والأشعار اختيارًا، بحيث لا يخدش أيّ منهما الحياء، ولا يُسيء إلى الأخلاق، بل يُطْرِف، ويُسَلِّي، ويُمْتِع، ويُطلعنا على أخبار العشْق وأشعاره في تاريخنا العربي، ويُمْتع أذواقنا الأدبيّة بما سنثبته من أشعار غزليّة رائعة.

آمل أن تُعجب هذه السلسلة أذواق القرّاء العرب، وأن يمضوا في قراءتها أوقاتًا لذيذة ومسلّية.

المؤلّف

وأوَّلُ مـا قـادَ الـمَـوَدَّةَ بَـيْـنَـنـا

بوادي بغيضٍ، يا بُثَيْنَ، سِبابُ

فقُلْنا لها قولًا، فجاءتْ بمثلِهِ

لِـكُـلِّ كـلامٍ يـا بُـثَـيْـنَ جَـوابُ

جميل بثينة



جميل بثينة

(...- 82هـ/ 701م)

جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو، شاعر من عُشّاق العرب. افْتَتن ببثينة، من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارها. شعره يذوب رقّةً، أقلُّ ما فيه المدح. وأكثره في النَّسيب والغزل والفخر.

وكانت منازل بني عذرة في وادي القرى (من أعمال المدينة)، ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبية، فقصد جميل مصر، وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه عبد العزيز، وأمر له بمنزل، فأقام قليلًا، ومات فيه.

ولعباس العقاد كتاب «جميل بثينة»، وللزبير بن بكار كتاب «أخبار جميل في سيرته»[1].

* * *

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 2/ 137-138.

أخباره من كتاب
«الأغاني»

خبر تعرّفه ببثينة[1]

كان جميل يَنْسُب بأمّ الجُسَير، وكان أوَّلَ ما علِق بُثينةَ أنه أقبل يومًا بإبله حتى أَوْردها واديًا يقال له بَغيض، فاضطجع وأرسل إبلَه مُصْعِدةً، وأهلُ بثينة بذَنَبِ الوادي؛ فأقبلتْ بثينةُ وجارةٌ لها واردتَيْن الماءَ، فمرَّتا على فِصَالٍ له[2] فنفَّرَتَهنّ، وهي إذ ذاك جُوَيْرِيةٌ صغيرة؛ فسبَّها جميلٌ، فسَبَّته فملُح إليه سبَابُها، فقال:

وأوَّلُ مـا قـادَ الـمـودَّةَ بَـيْـنَـنـا
بِـوادِي بَـغـيـضٍ يـا بُـثَـيْـنَ سِـبـابُ
وقُـلْـنـا لـهـا قَـوْلًا فـجـاءَتْ بِـمِـثْـلِـهِ
لِـكُـلِّ كـلامٍ يـا بُـثَـيْـنَ جَـوابُ

* * *

(1) الأغاني 8/ 103.

(2) الفصال: جمع فصيل، وهو ولد الناقة بعد أن يُفصل عن أمه.

لقاءاته بها[1]

خرج جميلُ بنَ مَعْمَر في يوم عيدٍ والنساء إذ ذاك يتزيَّنّ ويَبْدُو بعضُهن لبعض ويَبْدُون للرجال، وأن جميلًا وقف على بُثينة وأختها أمّ الجُسَير في نساء من بني الأَحَبّ، وهنّ بناتُ عمّ عُبيد اللّه بن قُطْبة أخي أبيه، فرأى منهنّ منظرًا وأعجبنه وعشِق بُثَيْنَةَ وقعد معهنّ، ثم راح وقد كان معه فِتْيانٌ من بني الأَحْبّ، فعلم أنّ القوم قد عَرفوا في نظره حبّ بُثَيْنة ووجَدوا عليه، فراح وهو يقول:

عَجِلَ الفِراقُ ولَيْتَهُ لَمْ يَعْجَلِ
وَجَرَتْ بَوَادِرُ دمْعِكَ المُتَهَلِّلِ
طَرَبًا وَشَاقَكَ ما لَقِيتَ ولم تَخَفْ
بَيْنَ الحَبِيبِ غَدَاةَ بُرْقَةِ مِجْوَلِ[2]
وَعَرَفْتَ أنَّكَ حِينَ رُحْتَ وَلَمْ يَكُنْ
بَعْدُ اليَقِينُ ولَيْسَ ذَاكَ بِمُشْكِلِ
لَنْ تَسْتَطِيعَ إلَى بُثَيْنَةَ رَجْعَةً
بَعْدَ التَفَرُّقِ دُون عَامٍ مُقْبِلِ

قال: وإنّ بُثَينة لمَّا أُخبرتْ أن جميلًا قد نَسب بها، حلفَتْ باللّه لا يأتيها على خَلاءٍ إلاَّ خَرَجتْ إليه ولا تتوارى منه، فكان يأتيها عند غَفَلاتِ الرجال،

---

(1) الأغاني 8/ 103.

(2) برقة مجول: اسم موضع.

فيتحدَّث إليها ومع أخواتها، حتى نُمِيَ إلى رجالها أنه يتحدَّث إليها إذا خلا منهم، وكانوا غَيَارَى، فرصَدوه بجماعةٍ نحوٍ من بِضْعةَ عَشَرَ رجلًا وجاء على الصَّهْباء ناقتِه حتى وقف على بُثَينةَ وأمّ الجُسَير وهما يحدِّثانه وهو يُنْشِدُهما يومئذٍ:

لَقد ظَنَّ هذا القلبُ أن ليس لاقيًا
سُلَيمى ولا أمَّ الجُسَيرِ لحِينِ
فليت رجالًا فيكِ قدْ نذَروا دَمِي
وهَمُّوا بِقَتْلي يا بُثَيْنَ لَقُونِي

* * *

تشكّيه في شعره

أخبرني الحَرَميّ قال: حدّثنا الزبير قال: حدّثنا بُهْلول بن سليمان عن مَشْيخةٍ من عُذْرة:

واعدتْ بُثَينة جميلًا أن يلتقيا في بعض المواضع، فأتى لوعدها. وجاء أعرابيٌّ يستضيف القوم، فأنزلوه وقَرَوْه[1]؛ فقال لهم: قد رأيتُ في بطن هذه الوادي ثلاثةَ نَفرٍ مُتَفَرِّقين مُتَوارِين[2] في الشجر، وأنا خائف عليكم أن يسلُبوا بعضَ إبِلكم؛ فعرفوا أنه جميلٌ وصاحباه، فَحرسوا بُثينة، ومنعوها من الوفاء بوعده.

فلما أَسْفر له الصبح، انصَرف كئيبًا سَيِّئ الظنّ بها، ورجع إلى أهله؛ فجل نساء الحيّ يُقَرِّعْنه بذلك[3]، ويقلن له: إنما حصلتَ منها على الباطل والكذب والغَدْر، وغيرُها أولى بوَصْلك منها، كما أنّ غيرَك يحظَى بها، فقال في ذلك:

أَبُـثَـيْـنَ إنَّـكِ قَـدْ مـلَـكْـتِ فَـأَسْـجِـحـي
وَخُـذي بِـحَـظِّـكِ مِـنْ كـريـمٍ وَاصِـلِ[4]

(1) قروه: قدّموا له القِرى (الطعام).

(2) متوارين: مختبئين.

(3) أي يحاولن إغاظته.

(4) أسجحي: أرفقي وسهّلي.

فَلَرُبَّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصْلَها
بالجِدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الهازِلِ
فَأَجَبْتُهَا بالقَوْلِ بَعْدَ تَسَتُّرٍ
حُبّي بُثَيْنَةَ عَنْ وِصالِكِ شاغِلي
لَوْ كَانَ في صَدْرِي كَقَدْرِ قُلامَةٍ
فَضْلٌ وَصَلْتُكِ أوْ أتَتْكِ رَسائِلي
وَيَقُلْنَ: إنَّكَ قد رَضِيتَ بِباطِلٍ
مِنْها فَهَلْ لَكَ في اجْتِنابِ الباطِلِ
وَلَباطِلٌ مِمَّنْ أُحِبُّ حَدِيثَهُ
أشْهَى إلَيَّ مِنَ البَغِيضِ الباذِلِ

* * *

التقاؤه ببثينة بعد غياب وتعاتبهما[1]

لقي جميلٌ بثينةَ بعد تهاجُر كان بينهما طالت مدَّتُه، فتعاتبا طويلًا، فقالت له: وَيْحَك يا جميل! أتزعم أنك تَهْواني وأنت الذي تقول:

رمَى اللَّهُ في عينيْ بُثَيْنَةَ بالقَذَى
وفي الغُرِّ من أنيابِها بالقَوادِحِ![2]

فأطرق طويلًا يبكي ثمّ قال: بل أنا القائلُ:

ألا لَيْتَني أعمى أصَمُّ تَقُودُنِي
بثينةُ لا يَخْفَى عليَّ كَلامُها

فقالت له: وَيْحَك! ما حملك على هذه المُنَى! أوَليس في سعةِ العافية ما كفانا جميعًا!

* * *

(1) الأغاني 8/ 111.

(2) القوادح: جمع القادح، وهو ما يعرض للأسنان من آفات.

الحبّ العفيف[1]

سَعَتْ[2] أَمَةٌ لبُثَيْنَةَ بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلًا عندها الليلةَ، فأتياها مُشْتَمليْن على سيفين، فرأياه جالسًا حَجْرةً[3] منها يحدّثها ويشكو إليها بثّه، ثم قال لها: يا بُثَينة، أرأيت وُدِّي إيَّاكِ وشَغَفي بكِ ألاَ تَجْزينيه؟

قالت: بماذا؟

قال: بما يكون بين المتحابِّين.

فقالت له: يا جميل، أهذا تَبْغي! واللّه لقد كنت عندي بعيدًا منه، ولئن عاودْتَ تعريضًا بريبةٍ، لا رأيتَ وجهي أبدًا.

فضحك وقال: واللّه ما قلتُ لكِ هذا إلا لأعلَم ما عندكِ فيه، ولو علمتُ أنّك تُجِيبينَنِي إليه، لعلمتُ أنك تُجيبين غيري، ولو رأيتُ منكِ مساعدةً عليه، لضربتُك بسيفي هذا ما استَمْسَكَ في يدي، ولو أطاعتْني نفسي لهجرتُكِ هِجْرَةَ الأبَدِ؛ أوَما سمعتِ قولي:

وإنّي لأَرْضَى من بُثَيْنَةَ بالّذي
لو أبصَرَه الواشِي لقَرَّتْ بَلابِلُهْ[4]

(1) الأغاني 8/ 111.

(2) سعت بها: وشت ونمّت.

(3) الحَجرة: الناحية.

(4) البلابل: جمع بَلبال وهو شدّة الهم والوسواس.

بـ«لا» وبـ«أن لا أستطيعَ» وبالمُنَى
ويالأملِ المَرْجُوِّ قد خابَ آمِلُهْ
وبالنَّظرَةِ العَجْلَى وبالحَوْل[1] تَنْقَضِي
أواخِرُه لا نَلْتَقِي وأوائِلُهْ

* * *

(1) الخول: السنة.

لقاء[1]

قال رجل من عذرة: كنتُ تِرْبًا[2] لجميل وكان يَأْلَفُنِي، فقال لي ذاتَ يوم: هل تساعدني على لقاء بثينة؟ فمضيتُ معه، فكَمَن لي في الوادي، وبَعث بي إلى راعي بُثينة بخاتَمه، فدفعتُه إليه، فمضى به إليها، ثم عاد بمَوْعِد منها إليه. فلمّا كان اللّيلُ، جاءته، فتحدَّثا طويلًا حتى أَصْبحا، ثم ودَّعها، وركِب ناقته. فلما استوى في غَرْزِها[3]، وهي باركةٌ، قالت له: اذْنُ منّي يا جميل، فقال:

إنَّ المَنَازِلَ هَيَّجَتْ أَطْرَابي
وَٱسْتَعْجَمَتْ آيَاتُها بِجَوَابي
قَفْرٌ تَلُوحُ بِذِي اللُّجَيْنِ كَأنَّها
أَنْضَاءُ وَشْمٍ أوْ سُطُورُ كِتَابِ[4]
لمّا وَقَفْتُ بِهَا القَلُوصَ تَبادَرَتْ
مِنّي الدُّمُوعُ لِفُرْقَةِ الأحْبَابِ
وذكرتُ عصرًا يا بُثَيْنَةُ شاقَني
وذكرتُ أيّامي وشَرْخَ شَبابِي

---

(1) الأغاني 8/ 112.

(2) تربه: من نفس عمره.

(3) الغرز: ركاب الرحل من جلد مخروز يُعتمد عليه في الركوب.

(4) أنضاء: جمع نضو. وأنضاء رسم: رسم بالٍ خَلَق.

سَعْي كُثيِّر عَزّة لجمْعهما[1]

روى أبو مالكٍ النهديّ، قال:

جلس إلينا كثيِّر ذاتَ يوم، فتذاكرْنا جميلًا؛ فقال: لقيني مرَّةً، فقال لي: من أين أقبلت؟

قلتُ: من عند أبي الحبيبة (أعني بثينة).

فقال: وإلى أين تمضي؟

قلت: إلى الحبيبة (أعني عَزَّة).

فقال: لا بدّ من أن ترجع عَوْدك على بدْئك، فتستجدَّ لي موعدًا من بُثَينة.

فقلت: عهدي بها الساعةَ وأنا أستحيي أن أرجع.

فقال: لا بدّ من ذلك.

فقلت له: فمتى عَهْدُكَ ببُثينة؟

فقال: في أوَّل الصيد وقد وقعتْ سحابةٌ بأسفل وادي الدَّوْم[2]، فخرجتْ ومعها جاريةٌ لها تَغْسِل ثيابَها؛ فلما أبصرتْني أنكرتْني، فضربتْ بيديها إلى ثوب في الماء، فالتَحفتْ به، وعرَفتْني الجارية، فأعادت الثوب في الماء، وتحدَّثنا

(1) الأغاني 7/ 113.

(2) وادي الدوم: وادٍ يفصل بين خيبر والعوارض.

جتى غابت الشمس. وسألتُها الموعد فقالت: أهلي سائرون؛ وما وجدتُ أحدًا آمَنُه، فأُرسلَه إليها.

فقال له كُثَيِّر: فهل لك في أن آتِيَ الحيّ فأَنْزِعَ[1] بأبياتٍ من شعرٍ أذكرُ فيها هذه العَلاَمة إن لم أقدِر على الخَلْوةِ بها؟

قال: ذلك الصوابُ. فأرسله إليه؛ فقال له: انتظِرْني. ثم خرج كثيِّر حتى أناخ بهم. فقال له أبوها: ما ردَّكَ؟

قال: ثلاثةُ أبياتٍ عرضتْ لي، فأحببتُ أن أَعْرِضها عليكَ.

قال: هاتِها.

قال كثيِّر: فأنشدته وبُثَيْنَةُ تسمع:

فـقـلـتُ لـهـا يـا عَـزّ أُرْسِـلُ صـاحِـبـي
إلـيـكِ رسـولًا والـمُـوكَّـلُ مُـرْسَـلُ

بـأن تـجـعَـلِـي بَـيْـنِـي وبَـيْـنَـكِ مَـوْعِـدًا
وأنْ تـأمُـريـنـي مـا ٱلّـذي فـيـهِ أفْـعَـلُ

وآخِـرُ عَـهْـدِي مـنـكِ يـومَ لـقِـيـتِـنِـي
بـأسْـفـلِ وادي الـدُّومِ والـثـوبُ يُـغْـسَـلُ

قال: فضربتْ بُثَينة جانب خِدْرها، وقالت: اِخْسأ اِخْسَأ!

فقال أبوها: شأنكِ يا بُثَينة؟

قالت: كلبٌ يأتينا إذا نَوَّم الناسُ من وراء الرَّابية. ثم قالت للجارية: ابْغِينَا من الدَّوْماتِ[2] حطبًا لنذبَح لكثيِّر شاةً، ونشويَها له.

(1) انزع بأبيات من شعر: أتمثل، انشد.

(2) الدَّومات: شجر عظام.

فقال كثيِّر: أنا أعجَلُ من ذلك. وراح إلى جميلٍ فأخبره . فقال له جميل: الموعدُ الدَّوْماتُ. وقالت لأم الحسين ولَيْلَى نُجَيًّا بناتِ خالتها، وكانت قد أَنِسَتْ إليهنَّ واطمأنَّتْ بهنّ: إني قد رأيتُ في نحو نشيدِ كثيِّر أن جميلًا معه.

وخرج كثيِّر وجميلٌ حتى أَتَيا الدَّوْماتِ، وجاءت بُثَينة ومن معها، فما برحوا حتى بَرَق الصّبحُ. فكان كثيِّر يقول: ما رأيت مجلسًا قطُّ أحسنَ من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر! ما أَدْرِي أَيُّهما كان أَفْهَمَ!

* * *

هذْر دمه[1]

قال إسحاق بن مروان: عشق جميلٌ بثينة وهو غلام، فلما بلغ خطَبها فمُنع منها، فكان يقول فيها الأشعارَ، حتى اشتَهر وطُرد، فكان يأتيها سِرًّا، ثم تزوَّجت، فكان يزورها في بيت زوجها خُفية، إلى أن استُعمل دَجَاجَةُ بن رِبْعيّ على وادي القُرَى، فشكوْه إليه ألاَّ يُلِمَّ بأبياتها، وأَهْدَرَ دمَه لهم إن عاود زيارتها، فاحتَبس حينئذ.

وقال جابر أبو العَلاَء التَّنُوخي:

لما نذَر أهلُ بُثَينة دمَ جميل وأهدَره لهم السُّلطان، ضاقت الدنيا بجميل، فكان يَصْعَد باللَّيل على أكمَة رملٍ يتنسَّم الريحَ من نحو حيّ بُثينة ويقول:

أَيَـا رِيـحَ الـشَّـمَـالِ أَمَـا تَـرَيْـنِـي
أهِـيـمُ وَأنَّـنـي بَـادِي الـنُّـحُـولِ

هَـبِـي لِـي نَـسْـمَـةً مِـنْ رِيـحِ بَـثْـنٍ
ومُـنِّـي بـالـهُـبُـوبِ إلَـى جَـمِـيـلِ

وقُـولـي يـا بُـثَـيْـنَـةَ حَـسْـبُ نَـفْـسِـي
قَـلِـيـلُـكِ أوْ أقَـلُّ مِـنَ الـقَـلِـيـلِ

---

(1) الأغاني 8/ 115.

فإذا بدا وَضَحُ الصّبح انصرف. وكانت بثينة تقول لجَوَارٍ من الحيّ عندها: وَيْحَكنَّ! إني لأسمع أنينَ جميل من بعض الأكمات! فيقلن لها: اتَّقي اللَّه! فهذا شيء يخيِّله لك الشيطانُ لا حقيقة له.

* * *

تذاكرُ الغزل مع كثير[1]

التقى جميلٌ وكثيِّر فَتَذاكرا النَّسيب؛ فقال كثيِّر: يا جميل، أترى بُثَينة لم تسمع بقولك:

يَـقِـيـكِ جَـمِـيـلٌ كُـلَّ سُـوءٍ أمَـا لَـهُ
لَـدَيْـكِ حَـدِيـثٌ أوْ إلَـيْـكِ رَسُـولُ

وَقَـدْ قُـلْـتُ فـي حُـبّي لَـكُـمْ وَصَـبَابَـتي
مَـحَـاسِـنَ شِـعْـرٍ ذِكْـرُهُـنَّ يَـطُـولُ

فَـإنْ لـم يَـكُـنْ قـولـي رِضَـاكِ فَـعَـلِّـمِـي
هُـبُـوبَ الـصَّـبَـا يـا بَـثْـنُ كَـيْـفَ أقُـولُ

فَـمَـا غَـابَ عَـنْ عَـيْـني خَـيَـالُـكِ لَـحْـظَـةً
وَلاَ زَالَ عَـنْـهَـا والـخَـيَـالُ يَـزُولُ

فقال جميل: أترى عَزَّة يا كثيِّر لم تسمع بقولك:

يَـقـولُ الـعِـدا يـا عَـزّ قـدْ حـالَ دُونَـكُـم
شُـجـاعٌ عـلـى ظَـهْـرِ الـطـريـقِ مُـصَـمِّـمُ

---

(1) الأغاني 8/ 116.

فقلتُ لَها واللّهِ لوْ كانَ دونَكم
جهنَّمُ ما راعتْ فؤادِي جهنَّمُ
وكيفَ يَروُعُ القلبَ يا عزّ رائعٌ
ووجهك في الظّلْماءِ للسّفْرِ مَعْلَمُ
وما ظَلَمَتْكِ النّفسُ يا عَزّ في الهوى
فلا تَنْقِمِي حبّي فَما فيهِ مَنْقَمُ

قال: فبكيا قطعةً من الليل ثم انصرفا.

* * *

قصّة مثيرة[1]

زار جميلٌ بُثَيْنَةَ ذاتَ يومٍ، فنزل قريبًا من الماء يترصَّد أَمَةً لها أو راعية، فلم يكن نزولُه بعيدًا عن ورود أَمَة حبشيّة معها قِرْبةٌ، وكانت به عارفةً وبِما بينها وبينه. فسلَّمت عليه، وجلست معه، وجعل يحدِّثها ويسألها عن أخبار بُثَيْنة، ويحدِّثها بخبره بعدها، ويُحَمِّلُها رسائلَه. ثم أعطاها خاتَمه، وسألها دَفْعَه إلى بُثَينة وأخْذَ موعدٍ عليها، ففعلتْ وانصرفتْ إلى أهلها، وقد أبطأتْ عليه. فلقيها أبو بُثَينة وزوجُها وأخوها، فسألوها عمّا أبطأ بها، فالتوتْ عليهم، ولم تُخبرهم وتعلَّلتْ؛ فضربوها ضربًا مبرِّحًا؛ فأعلمتْهم حالَها مع جميل، ودفعتْ إليهم خاتَمه. ومرّ بها في تلك الحال فَتَيَانِ من بني عُذْرة[2]، فسمعا القصة كلَّها، وعرَفا الموضَع الذي فيه جميل، فأحبَّا أن يرداهم عنه، فقالا للقوم: إنكم إن لقيتُم جميلًا وليست بُثَينة معه ثم قتلْتُموه، لزمكم في ذلك كلُّ مكروه؛ فدَعُوا الأَمَةَ تُوَصِّل خاتَمه إلى بُثَينة، فإذا زارها بَيِّتُمُوهما جميعًا.

قالوا: صدَقتما لعَمْرِي إنّ هذا الرأيُ. فدفعوا الخاتم إلى الأَمَة وأمروها بإيصاله، وحذَّروها أن تُخبر بثينةَ بأنهم علِموا القَصَّة، ففعلتْ. ولم تعلم بثينةُ بما جَرَى. ومضى الفَتَيانِ فأنذرا جميلًا. فقال: واللَّهِ ما أَرْهَبهم، وإن في كِنانتي[3] ثلاثين سهمًا، واللّه لا أخطأ كلُّ واحد منها رجلًا منهم، وهذا

(1) الأغاني 8/ 117.

(2) عذرة: قوم جميل.

(3) الكنانة: جعبة السِّهام.

سيفي، واللّه ما أنا به رَعِشُ اليد ولا جَبَانُ الجَنَان[1]. فناشداه اللّهَ وقالا: البقيّة أصلح[2]، فتُقيم عندنا في بيوتنا حتى يَهْدأ الطلب، ثم نبعثُ إليها، فتزورُك وتَقْضِي من لقائها وَطَرًا وتنصرفُ سليمًا غير مُؤَبَّن[3].

فقال: أمَّا الآن، فابعثا إليها من يُنذرها؛ فأتياه براعيةٍ لهما، وقالا له: قُلْ بحاجتك.

فقال: ادخلي إليها وقُولي: إني أردت اقتناصَ ظَبْي، فحذَّره ذلك جماعةٌ ففاتَنِي الليلةَ. فمضتْ، فأعلمتْها ما قال لها؛ فعرفَتْ قصَّتهُ، وبحثتْ عنها، فعرفتْها؛ فلم تخرج لزيارته تلك الليلة، ورصَدوها فلم تَبْرَحْ مكانَها، ومَضَوْا يَقْتَصُّون أثرَه، فرأوْا بعرَ ناقته، فعرفوا أنه قد فاتهم، فقال جميل في ذلك:

خَليليّ عُوجا اليومَ حتّى تُسلِّما
على عَذْبةِ الأنيابِ طيِّبَةِ النَّشْرِ
أَلِمّا بها ثم اشْفَعا لي وسلِّما
عليها سَقاها اللّهُ مِنْ سَبَلِ القَطْرِ

وقال:

إذا ما دَنَتْ زِدْتُ اشتياقًا وإن نأت
جَزِعتُ لنَأْيِ الدارِ منها ولِلبُعْدِ
أبَى القلبُ إلا حبَّ بَثْنَةَ لم يُرِدْ
سِواها وحبُّ القلبِ بَثْنَةَ لا يُجْدي

* * *

(1) الجنان: القلب.
(2) أي: بقاؤه حيًّا أفضل.
(3) أي غير معيب.

خبره مع أم منظور التي اؤتمنت على بثينة[1]

قال بهلول بن سليمان: إنّ رهط بُثَينة ائتمنوا عليها عجوزًا منهم يَثِقُون بها، يقال لها أُمُّ منظور. فجاءها جميل، فقال لها: يا أُمَّ منظور، أَرِيني بثينَةَ.

فقالت: لا! واللَّهِ لا أفعل، قد ائتمنوني عليها.

فقال: أَمَا واللَّهِ لأَضُرَّنَّكِ.

فقالت: المَضَرَّةُ واللَّهِ في أن أُرِيكَها. فخرج من عندها وهو يقول:

ما أَنْسَ لا أَنْسَ منها نظرةً سَلَفَتْ
بالحِجْرِ يومَ جَلَتْها أُمُّ مَنظورِ[2]
ولا انسلابَتَها خُرْسًا جبائرُها
إليَّ من ساقِطِ الأرواقِ مَسْتورِ[3]

قال: فما كان إلاَّ قليلٌ حتى انتهى إليهم هذان البيتان. قال: فتعلَّقوا بأُمِّ منظور، فحلفتْ لهم بكلِّ يمينٍ، فلم يقبلوا منها.

وقيل: إنَّ رجلًا أنْشد مُصْعَب بنَ الزُّبير قولَ جميل:

---

(1) الأغاني 8/ 119.

(2) الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام.

(3) الجبائر: الأساور. الأرواق: جمع روق وهو الفسطاط. والمعنى أنها تتسلل إليه خفية من خيمتها فلا يُسمع رنين لأساورها.

ما أنْسَ لا أنسَ منها نظرةً سَلَفَتْ
بالحِجْرِ يومَ جَلَتْها أمّ منظورِ

فقال: لوددْتُ أنّي عرفتُ كيف جَلَتْها. فقيل له: إنّ أمّ منظور هذه حيَّة. فكتب في حَمْلِها إليه مُكرَّمة، فحُمِلَتْ إليه. فقال لها: أخبريني عن قول جميل:

ما أنْسَ لا أنسَ منها نظرةً سَلَفَتْ
بالحِجْرِ يومَ جَلَتْها أمّ منظورِ

كيف كانت هذه الجَلْوَة؟

قالت: ألبستُها قِلادَةَ بَلَح واسطتُها تفَّاحةٌ، وضفَرتُ شعرَها[1] وجعلت في فَرْقِها[2] شيئًا من الخَلُوق. ومَرَّ بنا جميلٌ راكبًا ناقته، فجعل ينظر إليها بمُؤْخِرِ عينه، ويلتفت إليها حتى غاب عنها. فقال لها مُصْعَب: فإنّي أُقْسِم عليكِ إلاَّ جَلَوْتِ عائشة[3] بنت طَلْحة مثلَ ما جَلَوْت بثينةَ، ففعلتْ. وركب مُصْعَبٌ ناقته وأقبل عليهما، وجعل ينظرُ إلى عائشةَ بمُؤْخِرِ عينِه، ويسير حتى غاب عنهما، ثم رجع.

* * *

(1) ضفر الشعر: جعله ضفائر.

(2) الفرق من الرأس: الفاصل بين صفين من الشعر.

(3) عائشة بنت طلحة (101 هـ/ 719م) من بني تميم بن مرة: أديبة، عالمة بأخبار العرب، فصيحة. أمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق (ر). وخالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وزوجها مصعب بن الزبير.

زيارة في ثوب راعٍ[1]

جاءَ جميلٌ إلى بُثَينة ليلةً، وقد أخذ ثيابَ راعٍ لبعض الحَيّ، فوجد عندها ضِيفانًا لها، فانتَبذ ناحيةً، فسألَه: من أنت؟

فقال: مِسكينٌ مُكَاتَب[2]، فجلس وحدَه، فعَشَّتْ ضيفانَها، وعشَّتْه وحدَه. ثم جلستْ هي وجاريةٌ لها واضطَجع القومُ مُنْتَحِين. فقال جميلٌ:

هـل الـبـائـسُ الـمَـقـرورُ دانٍ فـمُـصْـطَـلٍ
مـن الـنـارِ أو مُـغـطًّـى لِـحـافًـا فـلابـسُ[3]

فقالت لجاريتها: صوتُ جميلٍ واللّه! اذهبي فانظري!. فرجعتْ إليها فقالت: هو واللّه جميل! فشهَقت شَهْقَةً سمعها القومُ، فأقبلوا يَجْرُون وقالوا: ما لكِ؟ فطرحَتْ بُرْدًا من حِبَرَةٍ[4] في النار وقالت: احترق بُرْدِي، فرجع القومُ. وأرسلتْ جاريتها إلى جميل، فجاءتها به، فحبستْه عندها ثلاث ليالٍ، ثمّ سلَّم عليها وخرج.

* * *

---

(1) الأغاني 8/ 120.

(2) المكاتب: العبد يكاتبه سيده على مال يؤديه إليه على دفعات، فإذا أداه صار حراً.

(3) المقرور: المصاب بالبرد. المصطلي: الطالب الدفء.

(4) الحبرة: ثوب من قطن أو كتان مخطط، أو ملاءة من الحرير كانت ترتديها النساء.

مغامرة[1]

ذكر الهَيْثَم بن عُديّ وأصحابُه أن جماعةً من بني عُذْرةَ حَدَّثوا أن جميلًا رصد بثينةَ ذاتَ ليلةٍ في نُجعةٍ[2] لهم، ، حتى إذا صادف منها خَلْوةً سكِر ودنا منها وذلك في ليلةٍ ظَلماءَ ذاتِ غَيْم وريح ورعد، فحذَفها بحَصَاةٍ، فأصابتْ بعضَ أترابها، ففزِعتْ وقالت: واللّه ما حَذَفني في هذا الوقت بحصاةٍ إلا الجِنُّ! فقالت لها بثينةُ وقد فطِنَتْ أنَّ جميلًا فعل ذلك: فانصرفي ناحية إلى منزِلك حتى ننام.

فانصرفتْ وبقيتْ مع بُثينةَ أُمُّ الجُسَيْر وأُمُّ منظور، فقامت إلى جميل فأدخلته الخِبَاءَ معها وتحدَّثا طويلًا، ثم اضطَجع واضطجعت إلى جَنْبه، فذَهب النومُ بهما حتى أَصْبحا وجاءها غلامُ زوجِها بصَبُوح[3] من اللبن بعث به إليها، فرآها نائمةً مع جَميل، فمضى لوجهِهِ حتى خبَّر سيِّده، ورأته لَيْلَى والصَّبُوحُ معه وقد عَرفتْ خبرَ جميلٍ وبُثَينة، فاستوقفتْه كأنها تسأله عن حاله، وبعثَت بجارية لها وقالت: حذِّري بثينةَ وجميلًا، فجاءت الجارية فنبَّهتْهُما. فلمّا تبيَّنَتْ بثينةُ الصبحَ قد أضاء والناسَ منتشرين، ارتاعتْ وقالت: يا جميلُ! نفسَك نفسَك

(1) الأغاني 8/ 121.

(2) النجعة: مكان طلب الكلأ ومساقط الغيث.

(3) الصَّبوح: شراب الصباح.

فقد جاءني غلامُ نبيهٍ بصَبُوحِي من اللبن فرآنا نائمينْ! فقال لها جميل وهو غير مكترثٍ لما خوَّفَتْه منه:

لَعَمْرُكِ ما خَوَّفْتِنِي من مَخافةٍ
بُثَيْنَ ولا حَذَّرْتِنِي موضعَ الحَذَرْ
فأُقْسِمُ لا يُلْفَى لِيَ اليومَ غِرَّةٌ
وفي الكَفِّ مِنِّي صارمٌ قاطِعٌ ذَكَرْ

فَأَقْسَمتْ عليه أن يُلْقِيَ نفسه تحت النَّضَدِ[1] وقالت: إنما أسألك ذلك خوفًا على نفسي من الفضيحة لا خوفًا عليك، ففعل ذلك ونامت كما كانت، واضطَجعتْ أُمّ الجُسَير إلى جانبها، وذهبتْ خادمُ لَيْلى إليها فأخبرتها الخبر، فتركتِ العبدَ يمضي إلى سيِّده فمضَى والصَّبُوح معه، وقال له: إني رأيتُ بُثَينة مُضْطَجِعةً وجميلٌ إلى جَنبها.

فجاء نُبيه إلى أخيها وأبيها، فأخذ بأيديهما وعرَّفهما الخبر، وجاؤوا بأجمعهم إلى بُثينة، وهي نائمة، فكشَفوا عنها الثوبَ، فإذا أُمُّ الجُسَيْر إلى جانبها نائمة. فخجِل زوجُها وسَبَّ عبدَه، وقالت لَيْلَى لأخيها وأبيها: قبَّحكما اللَّهُ! أفي كلِّ يوم تَفْضَحان فَتاتَكما، ويَلْقاكما هذا الأعور[2] فيها بكلِّ قبيح! قَبَّحه اللَّهُ وإياكما! وجعلا يَسُبَّان زوجَها ويقولان له كلَّ قول قبيح. وأقام جميلٌ عند بثينةَ حتى أجَنَّه[3] الليلُ ثمّ ودَّعها وانصرف. وحَذِرَتْهم بُثَيْنَةُ لِمَا جَرى من لقائه إيَّاها فَتحامَتْه مدَّةً، فقال في ذلك:

---

(1) النضد: متاع البيت المنضود بعضه فوق بعض.

(2) يريد نُبيه زوج بثينة.

(3) أجنّه: ستره.

أإن هـتَـفَـتْ وَرْقـاءُ ظَـلْـتَ سَـفـاهـةً
تُـبَـكِّـي عـلـى جُـمْـلٍ لـوَرْقـاءَ تَـهْـتِـفُ[1]
فَـلَـوْ كـانَ لـي بـالـصَّـرْمِ، يـا صـاحِ، طـاقـةٌ
صَـرَمْـتُ، ولـكـنّـي عـن الـصَّـرْمِ أَضْـعُـفُ[2]

* * *

(1) الورقاء: الحمامة يميل لونها إلى الخضرة.

(2) الصَّرْم: القطيعة. صرمتُ: قاطعت.

هروبه إلى اليمن[1]

حدَّث بعض رُواة عُذرة، قال:

إن السُّلطان أهدر دمّ جَميلٍ لرَهْط بُثَينة إن وجدوه قد غَشِي دُورَهم. فحذِرهم مدَّة، ثم وجدوه عندها، فأَغذَروا إليه وتوعَّدوه وكرِهوا أن يَنْشَب بينهم وبين قومه حربٌ في دمِه، وكان قومُه أعزّ من قومها، فأعادوا شكواه إلى السُّلطان، فطلبه طلبًا شديدًا، فهرب إلى اليمن فأقام بها مدَّة.

ولم يزلْ جميل باليمن حتى عُزل ذلك الوالي عنهم، وانتجعوا ناحية الشام فرحَل إليهم.

* * *

(1) الأغاني 8/ 131.

لوم أهله له على حبّه

قال الهيثم بن عُديّ وأصحابه في أخبارهم:

تَشَكَّى زوج بُثَينَة إلى أبيها وأخيها إلمامَ جميل بها. فوجَّهوا إلى جميل وأعذروا إليه وشَكَوْه إلى عَشيرته وأعذروا إليهم فيه وتوعَّدوه، وأتاهم فلامه أهلُه وعنَّفوه وقالوا: إنَّا نَسْتحلِفُ إليهم ونتبرَّأ منك ومن جَرِيرتك[1]. فأقام مدة لا يُلِمُّ بها، ثم لقي ابنيْ عمِّه رَوْقًا ومسعودًا، فشكا إليهما ما به وأنشدهما قولَه:

وَإِنّـي عـلـى الـشَّـيْءِ الّـذي يُـلْـتَـوَى بِـهِ
وإنْ زَجَـرَتْـنِـي زَجْـرَةً لَـوَرِيَـعُ

فَـقَـدْتُـكِ مِـنْ نَـفْـسٍ شَـعَـاعٍ فَـإِنَّـنِـي
نَـهَـيْـتُـكِ عَـنْ هـذَا وأنْـتِ جَـمِـيـعُ

فَـقَـرَّبْـتِ لـي غَـيْـرَ الـغَـرِيـبِ وأشْـرَفَـتْ
هُـنَـاكَ ثَـنَـايَـا مـا لَـهُـنَّ طُـلُـوعُ

يـقُـولُـونَ صَـبٌّ بـالـغَـوَانِـي مُـوَكَّـلٌ
وَهَـلْ ذَاكَ مِـنْ فِـعْـلِ الـرِّجَـالِ بَـدِيـعُ

(1) الجريرة: الجناية والذنب.

وَقَالُوا: رَعَيْتَ اللَّهْوَ والمَالُ ضَائِعٌ
فَكَالنَّاسِ فِيهِمْ صَالِحٌ وَمُضِيعُ

وقال الهَيْثَم بن عَدِيّ وأصحابه في أخبارهم:

لمَّا نذَر أهلُ بُثَيْنَة دمَ جميل وأباحهم السلطانُ قَتْلَه، أَعْذَروا إلى أهله. وكانت منازلهم متجاورة، إنما هم بُيُوتاتٌ يفترقون كما يفترق البطونُ والأفخاذ والقبائل غيرَ متباعدين، ألم تَرَ قول جميل:

أَبِيتُ مع الهُلَّاكِ ضَيْفًا لأهلها
وأَهْلِي قريبٌ مُوسِعونَ أُولُو فَضْلِ[1]

فمشتْ مَشْيَخةُ الحيّ إلى أبيه- وكان يُلَقَّب صُبَاحًا وكان ذا مالٍ وفضل وقَدْر في أهله- فشَكَوْه إليه، وناشدوه اللّهَ والرَّحِمَ وسألوه كَفَّ ابنِه عمّا يتعرَّض له ويفضحهم به في فتاتهم؛ فوعدهم كَفَّه ومَنْعَه ما استطاع، ثمَّ انصرفوا. فدعا به فقال له: يا بُنَيَّ! حتى متى أنت عَمِهٌ في ضلالك، لا تأنف من أن تتعلَّق بذات بَعْل يخلو بها ويَنْكحها وأنت عنها بمَعْزِل، ثم تقوم من تحته إليك، فتَغُرُّك بخِداعها وتُريك الصفاءَ والمودَّة وهي مُضْمِرٌ لبعلها ما تُضمره الحُرَّة لمن مَلَكها، فيكون قولُها لك تعليلًا وغرورًا فإذا انصرفْتَ عنها عادتْ إلى بَعْلها على حالتها المبذولة؛ إن هذا لَذُلٌّ وضَيْمٌ! ما أعرِف أَخْيَب سهمًا[2] ولا أضيَعَ عُمْرًا منك. فأنْشُدُك اللّهَ إلاّ كفَفْتَ وتأمَّلتَ أمرَكَ؛ فإنك تعلم أنّ ما قلتُه حقٌّ، ولو كان إليها سبيلٌ لبذلت ما أملِكه فيها، ولكنّ هذا أمر قد فات واستَبَدَّ به مَنْ قُدِّر له، وفي النساء عِوَضٌ.

(1) الهلّاك: هلاك الناس: الصعاليك يتتابون الناس ابتغاء معروفهم.

(2) السهم: الحظ والنصيب.

فقال له جميل: الرأيُ ما رأيتَ، والقولُ كما قلتَ؛ فهل رأيتَ قبلي أحدًا قدَر أن يدفع عن قلبه هَواه، أو مَلَك أن يُسْلِيَ نفسَه، أو استطاع أن يَدْفَعَ ما قَضِيَ عليه! واللّه لو قَدَرتُ أن أَمْحُوَ ذكرَها من قلبي أو أُزِيلَ شخصَها عن عيني، لفعلتُ، ولكن لا سبيلَ إلى ذلك، وإنما هو بلاءٌ بُلِيتُ به، وأنا أمتنع من طُروق هذا الحيّ[1] والإلمام بهم، ولو متّ كَمَدًا[2]؛ وهذا جَهْدي ومبلغُ ما أقدِر عليه. وقام وهو يبكي، فبكى أبوه ومَنْ حضر جَزَعًا لما رأوْا منه. فذلك حين يقول جميل:

أَلاَ مَـنْ لِـقَـلْـبٍ لا يَـمَـلُّ فَـيَـذْهَـلُ
أَفِـقْ فـالـتَـعَـزِّي عَـنْ بُـثَـيْـنَـةَ أَجْـمَـلُ

سَـلاَ كُـلُّ ذي وُدٍّ عَـلِـمْـتُ مَـكَـانَـهُ
وأَنْـتَ بِـهَـا حَـتَّـى الـمَـمَـاتِ مُـوَكَّـلُ

فَـمَـا هَـكَـذَا أَحْـبَـبْـتَ مَـنْ كـانَ قَـبْـلَـهـا
وَلاَ هَـكَـذَا فِـيـمَـا مَـضَـى كُـنْـتَ تَـفْـعَـلُ

فَـيَـا قَـلْـبُ دَعْ ذِكْـرَى بُـثَـيْـنَـةَ إِنَّـهـا
وإِنْ كُـنْـتَ تَـهْـواهـا تَـضِـنُّ وَتَـبْـخَـلُ

وَقَـدْ أَيْـأَسَـتْ مِـنْ نَـيْـلِـهَـا وَتَـجَـهَّـمَـتْ
ولَـلْـيَـأْسُ إِنْ لـم يُـقْـدَرِ الـنَّـيْـلُ أَمْـثَـلُ

وإلاَّ فَـسَـلْـهَـا نَـائـلًا قَـبْـلَ بَـيْـنِـهَـا
وَأَبْـخِـلْ بـهـا مـسْـؤُولَـةً حِـيـنَ تُـسْـأَلُ

---

(1) أي: زيارته.

(2) الكمد: شدة الحزن.

وَكَيْفَ تُرَجِّي وَصْلَهَا بَعْدَ بُعْدِهَا
وَقَدْ جُذَّ حَبْلُ الوَصْلِ مِمَّنْ تُؤَمِّلُ
وإنّ الَّتِي أَحْبَبْتَ قَدْ حِيلَ دُونَهَا
فَكُنْ حَازِمًا والحَازِمُ المُتَحَوِّلُ

* * *

لقاء عمر بن أبي ربيعة بجميل

التقى عمر بن أبي ربيعة بجميل، فقال له: اذهب بنا إلى بُثينة حتى نسلِّم عليها.

فقال له جميل: قد أَهْدر لهم السلطانُ دَمِي إن وجدوني عندها، وهاتِيكَ أبياتُها. فأتاها عمرُ حتى وقف على أبياتها، وتأنَّس حتى كُلِّم، فقال: يا جارية، أنا عمرُ بن أبي ربيعة، فأَعْلِمِي بثينة مكاني. فخرجتْ إليه بثينةُ في مَبَاذِلِها، وقالت: واللَّه يا عمرُ لا أكونُ من نسائك اللاَّتي يزعُمْنَ أن قد قتلهنّ الوجدُ بكَ؛ فانكَسَرَ عمر؛ قال: وإذا امرأةٌ أَدْماءُ طُوَالَةٌ[1].

وأخبرني بهذا الخبر عليّ بن صالح عن أبي هِفَّان عن إسحاق عن المسيَّبيّ والزُّبَير فذكر مثلَ ما ذكره الزبير وزاد فيه قال: فقال لها قولَ جميل:

وَهُمَا قَالَتَا: لَوَ انّ جَمِيلًا
عَرَضَ اليَوْمَ نَظْرَةً فَرَآنَا
بَيْنَمَا ذَاكَ مِنْهُمَا وإذَا بِي
أُعْمِلُ النَّصَّ سَيْرَةً زَفَيَانَا[2]

(1) أدماء: شديدة السمرة. طُوالة: شديد الطول.

(2) النص: السير الشديد عند الهاجرة. زفياناً: سريعاً.

نَـظَـرَتْ نَـحْـوَ تِـرْبِـهـا ثـمّ قـالَـتْ:

قَـدْ أتَـانَـا ـ ومـا عَـلِـمْـنَـا ـ مُـنَـانَـا

فقالت: إنه استَمْلَى منك فما أَفْلح، وقد قيل: اربِط الحمار مع الفرس، فإن لم يتعلّم من جَرْيه تعلّم من خُلُقه.

وذكر الهَيْثَم بن عَدِيّ وأصحابه في أخبارهم: أن جميلًا طال مُقامُه بالشام ثم قدِم، وبلغ بثينةَ خبرُه فراسلتْه مع بعض نساء الحيّ تذكُر شوقَها إليه ووَجْدَها به وطلبَهَا للحيلة في لقائه، وواعدتْه لموضع يلتقيان فيه؛ فسار إليها وحدَّثها طويلًا وأخبرها خبره بعدها. وقد كان أهلُها رصَدوها، فلما فَقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما، فوثب جميلٌ فانتَضَى سيفَه وشَدَّ عليهما فاتَّقياه بالهرب؛ وناشدتْه بثينةُ اللَّهَ إلاَّ انصرف، وقالت له: إن أقمتَ فضَحْتَنِي، ولعل الحيّ أن يَلْحقوك.

فأبى وقال: أنا مقيمٌ وامْضِي أنتِ ولْيَصْنَعوا ما أحبُّوا. فلم تزل تُناشده حتى انصرف. وقال في ذلك وقد هجرتْه وانقطع التلاقي بينهما مدَّة:

أَلَـمْ تَـسْـألِ الـرَّبْـعَ الـقَـوَاءَ فَـيَـنْـطِـقُ

وَهَـلْ تُـخْـبِـرَنْـكَ الـيَـوْمَ بَـيْـدَاءُ سَـمْـلَـقُ[1]

وَقَـفْـتُ بـهـا حـتّـى تَـجَـلَّـتْ عَـمَـايَـتِـي

وَمَـلَّ الـوُقُـوفَ الأرْحَـبِـيُّ الـمُـنَـوَّقُ[2]

تَـعَـزَّ وإنْ كـانَـتْ عَـلَـيْـكَ كَـرِيـمَـةً

لَـعَـلَّـكَ مِـنْ أسْـبَـابِ بَـثْـنَـةَ تُـعْـتَـقُ

---

(1) السملق: القفر الذي لا نبات فيه.

(2) الأرحبي: نسبة إلى أرحب أحد قبائل العرب وهو النجيب من الإبل. نوّق الحيوان: راضه وذلّله.

لَعَمْرُكُم إنّ البِعادَ لَشائِقِي
وبعضُ بِعادِ البَيْنِ والنّأيُ أشوقُ
وَبِيضٍ رَعابِيبٍ تُثَنِّي خُصُورَها
إذَا قُمْنَ أعْجازٌ ثِقَالٌ وَأسْوُقُ[1]
غَرَائِرَ لَمْ يَلْقَيْنَ بُوسَ مَعِيشَةٍ
يُجَنُّ بِهِنَّ الناظِرُ المُتَنَوِّقُ[2]
وَغَلْغَلْتُ مِنْ وَجْدٍ إليهِنَّ بَعْدَمَا
كَرَبْنَ وأحْشَائي مِنَ الهَوْلِ تَخْفِقُ[3]

* * *

(1) الأعجاز: جمع عجيزة وهي الكفل. أسؤق: جمع ساق.

(2) التنوّق: المبالغة في التجويد والملبس.

(3) غلغلت: أسرعت في سيري.

فشل محاولته في لقاء بثينة(1)

حدّث رجلٌ كان يصحَب جميلًا من أهل تَيْماء قال:

كنتُ يومًا جالسًا مع جميل وهو يحدِّثني وأُحدِّثه، إذ ثار وتربَّد وجهه، فأنكرتُه ورأيتُ منه غَير ما كنتُ أرى، ووثب نافرًا مُقشَعِرَّ الشعر متغيِّر اللون، حتى أُتِيَ بناقةٍ له قريبةٍ من الأرض مُجْتَمِعَةٍ مَوَثَّقةِ الخَلْق فشَدَّ عليها رَحْلَه، ثم أُتِيَ بِمحْلَب فيه لبنٌ فشرِبه، ثم ثنَّى فشرِبت حتى رَوِيت؛ ثم قال لي: اشْدُدْ أداة رَحْلِك واشرَب واسْقِ جَمَلك فإني ذاهبٌ بك إلى بعض مَذَاهبي، ففعلتُ فجال في ظهر ناقته وركبتُ ناقتي، فسِرْنا بياضَ يومنا وسوادَ ليلتنا، ثم أصبحنا فسِرْنا يومَنا كلَّه، لا واللَّه ما نزلنا إلا للصَّلاة.

فلمّا كان اليومُ الثالثُ دَفَعْنا إلى نسوةٍ فمال إليهنّ، ووجدنا الرجال خُلُوفًا(2)، وإذا قِدْرُ لبنٍ ثَمَّ وقد جُهِدتُ جوعًا وعطشًا. فلما رأيتُ القِدْرَ اقتحمتُ عن بعيري وتركتُه جانبًا، ثم أدخلتُ رأسي في القِدْر ما يَثْنيني حَرُّها حتى رَويت؛ فذهبتُ أُخرِجُ رأسي من القِدْر فضاقت عليّ وإذا هي على رأسي قلنسوة، فضَحكْن منِّي وغَسَلْنَ ما أصابني.

وأُتِيَ جميلٌ بِقرًى فواللَّه ما التفت إليه. فبينا هو يحدِّثهنّ إذا رَوَاعي(3)

(1) الأغاني 8/ 156.

(2) خلوفاً: غيباً.

(3) الرواعي: الإبل الراعية.

الإبلِ، وقد كان السُّلطان أحلَّ لهم دَمه إن وجدوه في بلادهم؛ وجاء الناسُ فقالوا له: وَيْحَكَ! انْجُ وتَقَدَّمْ! فواللَّه ما أَكْبَرَهم كلَّ الإكبار. وغَشِيه الرجالُ فجعلوا يرمونه ويطرُودنه، فإذا قَرُبوا منه قاتلهم ورمَى فيهم. وهامَ بِي جَمَلي، فقال لي: يَسِّرْ لنفسك مَرْكبًا خلفي، فأَرْدَفَنِي خَلْفَه. ولا واللَّه ما انكسر ولا انحلَّ عن ظهر بعيره حتى رجع إلى أهله، وقد سار ستَّ ليال وستة أيَّام وما التفت إلى طعام.

* * *

ابن عمه روق يلومه على حبه بثينة

وشكا زوجُ بُثَينة إلى أبيها وأخيها إلْمامَ جميلٍ بها؛ فوجَّهوا إلى جميلٍ فأَعْذروا إليه وشكَوْه إلى عَشيرته وأعْذروا إليهم وتوعَّدوه وإيّاهم. فلامه أهلُه وعنَّفوه وقالوا: اسْتَخْلِصْ إليهم ونبرأ منك ومن جَريرتك. فأقام مدَّةً لا يُلِمّ بها. ثم لقي ابني عمِّه رَوْقًا ومسعدة، فشكا إليهما ما به وأنشدهما قوله:

زُورَا بُـثَـيْـنَـةَ فـالـحـبـيـبُ مَـزُورُ
إنَّ الـزِّيـارةَ لـلـمُـحِـبِّ يَـسـيـرُ

إنَّ الـتـرحُّـلَ، إن تـلـبَّـسَ أمـرُنـا
وأعـتـاقَـنـا قَـدَرٌ أُحِـمَّ، بـكـورُ

إنّـي عـشـيَّـةَ رُحْـتُ وَهْـيَ حـزيـنـةٌ
تَـشـكـو إلـيَّ صـبـابـةً لَـصَـبُـورُ

وتـقـولُ بِـتْ عِـنـدي فَـدَيْـتُـكَ لـيـلـةً
أشْـكـو إلـيـكَ فـإنَّ ذاكَ يـسـيـرُ

فقال له رَوْق: إنك لعاجزٌ ضعيف في استكانتك لهذه المرأة وتَرْكِك الاستبدالَ بها مع كثرة النساء ووجود مَنْ هو أجملُ منها، وإنَّك منها بين فجورٍ أرفَعُك عنه، أو ذُلٍّ لا أُحِبّه لك، أو كَمَدٍ يُؤَدِّيك إلى التَّلَف، أو مخاطرةٍ بنفسك لقومها إن تَعَرَّضتَ لها بعد إعذارهم إليك. وإن صرفتَ نفسَك عنها

وغلبتَ هواك فيها وتجرَّعتَ مرارةَ الحَزْم حتى تألَفَها وتَصْبِر نفسك عليها طائعةً أو كارهةً ألِفتَ وسَلَوْتَ.

فبكى جميل وقال: يا أخي، لو ملكتُ اختياري لكان ما قلت صوابًا، ولكني لا أملك الاختيار ولا أنا إلاّ كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا، وقد جئتُك لأمرٍ أسألك ألاَّ تكدر ما رجوتُه عندك فيه بلَوْم، وأن تحْمِلَ على نفسك في مساعدتي.

فقال له: فإن كنتَ لا بدّ مُهْلِكًا نفسَك فاعمَلْ على زيارتها ليلًا؛ فإنها تخرج مع بنات عمٍّ لها إلى مَلْعَب لهنَّ، فأجيءُ معك حينئذ سرًّا، ولي أخٌ من رَهْط بُثَينة من بني الأحَبّ، نَأوي عنده نهارًا، وأسأله مساعدتك على هذا، فتقيم عنده أيَّامًا نهارَك وتجتمع معها بالليل إلى أن تَقْضِي أرَبَك؛ فشكره.

ومضى رَوْق إلى الرجل الذي من رهط بُثَينة، فأخبره الخبرَ واستعهده كتمانَه وسأله مساعدتَه فيه. فقال له: لقد جئتني بإحدى العظائم؛ ويْحَك! إن في هذا مُعاداتي الحيَّ جميعًا إن فُطِن به.

فقال: أنا أتحرَّز في أمره من أن يَظْهر، فواعَدَه في ذلك؛ ومضى إلى جميلٍ فأخبره القصة، فأتيا الرجلَ ليلًا فأقاما عنده. وأرسل إلى بُثَينة بوليدةٍ له بخاتم جميل فدفعتْه إليها، فلما رأته، عرفتْ، فتَبِعَها وجاءته فتحدَّثا ليلتَهما. وأقام بموضعه ثلاثة أيام ثم ودَّعها، وقال لها: من غيرِ قِلى[1] واللّه ولا مَلَلٍ يا بُثَينة كان وَدَاعي لكِ، ولكنَّني قد تذممت من هذا الرجل الكريم وتعريضِه نفسَه لقومه، وأقمتُ عنده ثلاثًا ولا مزيدَ على ذلك، ثم انصرف. وقال في عَذْل رَوْقِ ابنِ عمه إيَّاه:

---

(1) القلى: البغض.

لَـقَـدْ لامَـنـي فِـيـهَـا أخٌ ذُو قَـرَابَـةٍ
حَـبِـيـبٌ إلَـيْـهِ فـي نَـصِـيـحـتِـهِ رُشْـدِي
فَـقَـالَ: أفِـقْ حَـتَّـى مَـتَـى أنْـتَ هَـائِـمٌ
بـبَـثْـنَـةَ فِـيـهَـا لا تُـعِـيـدُ وَلاَ تُـبْـدِي
فَـقُـلْـتُ لَـهُ: فِـيـهـا قَـضَـى الله مَـا تَـرَى
عَـلَـيَّ وَهَـلْ فـيـمـا قَـضَـى الله مِـنْ رَدٍّ
فَـإنْ يَـكُ رُشْـدًا حُـبُّـهـا أوْ غَـوَايَـةً
فَـقَـدْ جِـئْـتُـهُ مَـا كَـانَ مـنّـي عَـلَـى عَـمْـدِ
أفِـي الـنَّـاس أمْـثَـالِـي أحَـبُّـوا فَـحُـبُّـهُـمْ
كَـحُـبِّـيَ أمْ أحْـبَـبْـتُ مِـنْ بَـيْـنِـهـم وَحْـدِي؟
وهَـلْ هـكـذا يَـلـقَـى الـمُـحِـبُّـونَ مـثـلَ مـا
لـقِـيـتُ بِـهـا أم لـم يـجِـدْ أحـدٌ وَجْـدِي؟

* * *

صُلْح بعد تهاجر[1]

وقع بين جميل وبُثَينة هجرٌ في غَيْرةٍ كان غارها عليها من فتًى كان يتحدَّث إليها من بني عمها، فكان جميل يتحدَّث إلى غيرها، فيشُقُّ ذلك على بُثَينة وعلى جميل، وجعل كلٌّ واحد منهما يَكْرَه أن يُبْدِي لصاحبه شأنَه. فدخل جميلٌ يومًا وقد غلبَه الأمرُ إلى البيت الذي كان يجتمع فيه مع بُثينة. فلما رأته بُثينة جاءت إلى البيت ولم تبرُزْ له؛ فجزع لذلك جميل، وجعل كلٌّ واحد منهما يُطالع صاحبَه؛ وقد بلغ الأمر من جميل كلَّ مبلغ، فأنشأ يقول:

لقد خِفْتُ أن يَغتالَني الموتُ عُنْوةً
وَفي النّفسِ حاجاتٌ إليكِ كَما هِيا
وإنّي لتَثْنينِي الحَفيظةُ كُلَّما
لَقيتُكِ يومًا أن أَبُثَّكِ ما بِيا
ألمْ تَعلمي يا عَذْبةَ الرِّيقِ أنّني
أظَلُّ إذا لم أُسْقَ رِيقَكِ صادِيا

فرَقَّتْ له بُثينة، وقالت لمولاةٍ لها كانت معها: ما أحسنَ الصدقَ بأهله! ثم اصطلحا. فقالت له بُثينة: أَنْشِدني قولَك:

تَظلُّ وَراءَ السِّتْرِ تَرنُو بلَحْظِها
إذا مرَّ من أترابِها مَنْ يَرُوقُها

فأنشدها إيَّاها؛ فبكت وقالت: كلاًّ يا جميل! وَمَنْ ترى أنه يَرُوقُني غيرُك!

(1) الأغاني 8/ 161.

كيف نُعي جميل إلى بثينة[1]

حدّث عمر بن شبَّه قال: ذكر أيوب بن عَباية قال:

خرجتُ من تَيْمَاء في أغْباش[2] السَّحَر، فرأيت عجوزًا على أتَان، فتكلَّمتْ فإذا أعرابيةٌ فصيحة. فقلت: من أنت؟

فقالت: عُذريَّة. فأجريتُ ذكر جميلٍ وبُثينة؛ فقالت: واللَّه إنَّا لعلى ماءٍ لنا بالجَنَاب[3] وقد تنكَّبْنا الجادَّةَ[4] لجيوشٍ كانت تأتينا من قِبَل الشام تُريد الحجاز، وقد خرج رجالُنا لسَفَرٍ وخلَّفوا معنا أحداثًا؛ فانحدروا ذاتَ عشيَّة إلى صِرْمٍ[5] قريبٍ منا يتحدَّثون إلى جَوَارٍ منهم، فلم يبقَ غيري وغيرُ بثينة، إذ انحدر علينا منحدرٌ من هَضْبةٍ تِلْقاءنا، فسلَّم ونحن مُستوحشون وَجِلون. فتأمَّلتُه ورددتُ السَّلام فإذا جميلٌ. فقلت: أجميل؟

قال: واللَّه؛ وإذا به لا يتماسك جوعًا، فقمت إلى قَعْبٍ لنا فيه أَقِطٌ[6]

---

(1) الأغاني 8/ 161.

(2) الأغباش: جمع غبش وهو بقية الليل وظلمة آخره.

(3) الجناب: موضع.

(4) الجادة: الطريق.

(5) الصرم: الجماعة المنعزلة.

(6) الأقِط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويطبخ، أو يطبخ به.

مطحون وإلى عُكَّةٍ[1] فيها سَمْن ورُبٌّ[2]، فعَصَرْتها على الأَقِط ثم أدنيتُها منه وقلت: أَصِبْ من هذا، فأصاب منه، وقمتُ إلى سِقَاءٍ فيه لبنٌ فصَبَبْتُ عليه ماءً باردًا فشرب منه وتراجعتْ نفسُه. فقلت له: لقد بلغتَ ولقِيتَ شَرًّا، فما أمرُك؟

قال: أنا واللّه في هذه الهَضْبة التي تَرَيْن منذ ثلاثٍ ما أَرِيمُها أنتظر أن أرى فُرْجَةً، فلما رأيتُ مُنْحَدَرَ فِتْيانكم أتيتُكم لأُوَدِّعكم وأنا عامدٌ إلى مِصْر.

فحدَّثنا ساعةً ثم ودَّعَنا وشخَص، فلم تَطُلْ غيبتُه أن جاءنا نَعْيُه. فزعموا أنه قال حين حضرتْه الوفاة:

صَـدَعَ الـنَّـعِـيُّ ومـا كَـنَـى بِـجَـمِـيـلِ
وَثَـوى بِـمِـصْـرَ ثَـواءَ غـيـرِ قُـفُـولِ[3]
ولـقـد أَجُـرّ الـذَّيْـلَ فـي وادي الـقُـرَى
نَـشْـوانَ بـيـنَ مَـزارعٍ ونـخـيـلِ
قُـومِـي بُـثَـيْـنَـةُ فـانْـدُبِـي بـعَـويـلِ
وابْـكِـي خـلـيـلَـكِ دونَ كـلِّ خـلـيـلِ

وحدَّث رجلٌ شهِد جميلًا لمَّا حضرته الوفاة بمِصْر أنه دعاه فقال: هل لك في أن أُعطيَك كلَّ ما أُخَلِّفه على أن تفعل شيئًا أعهده إليك؟ فقال: قلت: اللهم نعم. قال: إذا أنا متُّ فخُذْ حُلَّتي هذه التي في عَيْبَتِي[4] فقال: قلت: اللهم نعم فاعْزِلْها جانبًا ثمّ كلُّ شيء سواها لك، وارْحَلْ إلى رَهْط بني الأَحَبّ من عُذْرة- وهم رَهْط بُثينة- فإذا صرتَ إليهم فارتحلْ ناقتي هذه واركَبْها، ثم

(1) العكة: زق صغير للسمن.

(2) الرب: عصارة التمر المطبوخة.

(3) صدع الأمر وبه: بيّنه وجهر به.

(4) العيبة: وعاء من أدم ونحوه يكون فيه المتاع.

البَسْ حُلَّتي هذه وأشققها ثمّ اعْلُ على شَرَفٍ وصِحْ بهذه الأبيات وخَلاَك ذَمٌّ. ثم أنشدني هذه الأبيات:

صَـدَعَ الـنَّـعِـيُّ ومـا كَـنَـى بِـجـمـيـلِ
وَثَـوى بِـمِـصْـرَ ثَـواءَ غـيـرِ قُـفُـولِ[1]

فلما قَضىَ وواريتُهُ أتيتُ رَهْطَ بثينة، ففَعلْتُ ما أمرني به جميل، فما استتممْتُ الأبيات حتى بَرَزتْ إليَّ امرأةٌ يتبعها نسوةٌ قد فَرَعَتْهُنَّ طُولًا وبرَزَتْ أمامهن كأنها بدرٌ قد بَرز في دُجُنَّةٍ وهي تتعثَّر في مِرْطِها[2] حتى أتتني، فقالت: يا هذا واللّه لئن كنتَ صادقًا لقد قتلتَني، ولئن كنتَ كاذبًا لقد فضَحْتَني.

قلت: واللّه ما أنا إلاَّ صادق، وأخرجتُ حُلَّتَه.

فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصَكَّتْ وجهَها، واجتمع نساءُ الحيِّ يبكين معها ويَنْدُبْنَه حتى صعِقَتْ فمكثتْ مغشيًّا عليها ساعةً، ثم قامت وهي تقول:

وإنّ سُـلُـوِّي عـن جَـمـيـلٍ لَـسـاعـةٌ
مـن الـدَّهْـرِ مـا حـانـتْ ولا حـان حِـيـنُـهـا
سـواءٌ عـلـيـنـا يـا جـمـيـلُ بـن مَـعْـمَـرِ
إذا مُـتَّ بـأسـاءُ الـحـيـاةِ ولِـيـنُـهـا

قال: فلم أرَ يومًا كان أكثر باكيًا وباكيةً منه يومئذ.

* * *

---

(1) ثوى: أقام.

(2) المرط: كساء من صوف.

سكينة تنقد الشعراء[1]

روى ابن الفرزدق قال:

اجتمع أبي وجميل بن معمر العذريّ وجرير بن الخَطَفى ونُصيب مَوْلَى عمُر، وكثَيِّر عزَّة في موسم من المواسم، فقال بعضهم لبعض: والله، لقد اجتمعنا في هذا الموسم لأمرِ خير أو شرٍّ، وما يَنبغي لنا أن نَتَفرَّق إلا وقد تتابَعَ لنا في النّاس شيءٌ نُذكَرُ به، فقال جرير: هل لكم في سُكَينة بنت الحسين ابن عليّ بن أبي طالب، نقصدها، فنسلّم عليها، فلعلّ ذلك يكون سببًا لبعض ما نُريد؟ فقالوا: امضوا بنا، فمضَينا إلى منزِلها، فقرَعنا البابَ فخرَجتْ إلينا جارِيةٌ لها بُرَيْعَةٌ ظريفة، فأقرأها كلّ رَجلٍ منهم السَّلام باسمه ونسبه، فدخلت الجارية، وعادت فبلّغتهم سلامَها، ثمّ قالت أيّكم الذي يقول:

سَـرَتِ الـهُـمُـومُ فَـبِـتْـنَ غَـيـرَ نِـيـامِ
وَأخُـو الـهُـمُـومِ يَـرومُ كـلّ مَـرامِ
عَـفَـتْ مَـعـالِـمَـهـا الـرّواسِـمُ بَـعـدَنـا،
وَسـجـالُ كـلّ مُـجَـلـجِـلٍ سَـجّـامِ[2]
دَرَسَ الـمَـنـازِلُ بَـعـدَ مَـنـزِلَـةِ الـلّـوى
وَالـعَـيْـشُ بَـعْـدَ أولـئِـكَ الأيّـامِ

---

(1) مصارع العشاق 2/ 79-82.

(2) الرواسم: الرياح. السجال، الواحد سجل: الدلو العظيمة فيها ماء. شبه تدفق المياه من السحاب المجلجل أي الرعاد بتدفقه من الدلاء. السجام: الكثير الانصباب.

طَـرَقَـتْـكَ صـائـدةُ الـقـلـوبِ وَلـيـسَ ذا
حـيـنَ الـزِّيـارَةِ فـاْرجِـعـي بِـسَـلامِ
تُـجـرِي الـسِّـواكَ عـلـى أغـرَّ كـأنَّـهُ
بَـرَدٌ تَـحَـدَّرَ مِـن مُـتُـونِ غَـمـامِ
لَـوْ كـنـتِ صـادِقـةً بِـمـا حَـدَّثْـتِـنـا
لَـوَصـلـتِ ذاكَ وكـانَ غـيـرَ تَـمـامِ

قال جرير: أنا قلته. قالت: فما أحسنتَ ولا أجمَلْتَ، ولا صَنَعْت صَنيعَ الحُرّ الكريم، لا سَترَ الله عليك كما هَتكتَ سِترَك وسِترَها، ما أنتَ بكَلِفٍ ولا شرِيفٍ حينَ رَددتَها بعد هُدوء العين، وقد تجشّمت إليك هولَ اللّيل. هلا قلت:

طَـرَقـتْـك صـائـدةُ الـقُـلـوبِ فـمَـرْحـبًـا
نَـفـسـي فِـداؤكِ فَـاْدْخُـلـي بِـسَـلامِ

خذ هذه الخمسمائة درهم، فاستعن بها في سفرِك. ثمّ انصرَفت إلى مولاتها وقد أفحَمَتنا، وكلّ واحد من الباقين يتوَقَّعُ ما يُخجِله. ثمّ خَرَجَت فقالت: أيّكم الذي يقول:

ألا حـبّـذا الـبـيـتُ الّـذي أنـا هـاجِـرُهْ
فَـلا أنـا نـاسِـيـهِ، وَلا أنـا ذاكِـرُهْ
فـبُـورِكَ مـن بَـيـتٍ وَطـالَ نَـعِـيـمُـهُ
وَلا زالَ مَـغْـشـيًّـا وَخُـلِّـدَ عـامِـرُهْ
هوَ البيتُ بيتُ الطَّوْلِ وَالفضلِ دائمًا
وَأسـعَـدَ رَبـي جَـدّ مَـنْ هُـوَ زائِـرُهْ
بِـهِ كـلّ مَـوْشـيّ الـذراعَـيـنِ يَـرْتَـعـي
أُصـولَ الـخُـزامـى مـا تَـيَـقَّـنَ طـائِـرُهْ

هُما دَلّتاني مِنْ ثَمانينَ قامَةً
كما انقَضّ بازٍ أقتمُ الرّيشِ كاسِرُهْ

فلمّا استوَتْ رِجلايَ في الأرْضِ قالتا:
أحَيٌّ نُرَجّي أم قَتيلٌ نُحاذِرُهْ
فاصْبَحتُ في أهلٍ وَأصبَحَ قصرُها
مُغَلّقَةً أبْوابُهُ ودَساكِرُهْ

فقال أبي، يعني الفرزدق: أنا قلته. قالت: ما وُفّقتَ وَلا أصَبتَ، أما أيِستَ بتَعريضِك من عودة عنَك محمودةٍ؟ خذ هذه الستّمائة، فاستعن بها. ثمّ انصرَفت إلى مولاتها، ثمّ عادت فقالت: أيّكم الذي يقول:

فَلَوْلا أنْ يُقالَ صبا نُصَيبٌ
لَقُلْتُ بنَفْسيَ النّشءُ الصّغارُ
بنَفسي كُلّ مَهضُومٍ حَشاها،
إذا ظُلِمَتْ فَليسَ لها انتصارُ

فقال نصيب: أنا قلته. فقالت: أغزَلتَ وأحسَنتَ وكرُمتَ، إلاّ أنّك صَبَوتَ إلى الصّغارِ، وتَرَكتَ النّاهضَاتِ بأجملها. خُذْ هذه السبعمائة درهم، فاستعن بها.

ثمّ انصرَفت إلى مولاتها، ثمّ عادت فقالت: أيّكم الذي يقول:

وأعجَبَني يا عَزُّ مِنكِ خلائقٌ
كِرامٌ إذا عُدّ الخلائقُ أربَعُ
دُنُوُّكِ حتى يذكرَ الجاهلُ الصّبى
ومَدُّكِ أسبابَ الهَوى حينَ يطمعُ

وَأنّـــكِ لا يـــدري غَـــريـــمٌ مَـــطَـــلْـــتِـــهِ،
أَيَـــشْـــتَـــدُّ إن لاقـــاكِ أمْ يَـــتَـــضَـــرَّعُ
وَأنـــكِ إن واصَـــلـــتِ أعـــلـــمـــتِ بـــالّـــذي
لـــديـــكِ فـــلـــم يـــوجَـــد لـــك الـــدهـــرَ مـــطـــمـــعُ

قال كثير: أنا قلته. فقالت: أغزَلتَ وَأحسَنتَ. خُذْ هذه السّبعمائة درهم، فاستعن بها.

ثمّ انصرَفت إلى مولاتها، وخرَجت فقالت: أيّكم يقول:

لـــكـــلّ حَـــديـــثٍ بَـــيـــنَـــهُـــنّ بَـــشـــاشَـــةٌ،
وكُـــلّ قَـــتِـــيـــلٍ بَـــيـــنَـــهُـــنّ شَـــهِـــيـــدُ
يَـــقـــولـــونَ جـــاهِـــد يـــا جَـــمـــيـــلُ بـــغَـــزْوَةٍ،
وَأيّ جِـــهـــادٍ غَـــيـــرهُـــنّ أُرِيـــدُ
وَأفـــضَـــلُ أيّـــامـــي وَأفـــضَـــلُ مَـــشـــهـــدي،
إذ هِـــيـــجَ بـــي يـــومًـــا وَهـــنّ قُـــعُـــودُ

فقال جميل: أنا قلتُه.

قالتْ: أغزَلتَ وكرُمتَ وعفَفتَ، ادخُل.

قال: فلمّا دخلتُ سلّمتُ، فقالت لي سكينة: أنت الذي جَعَلتَ قتيلَنا شهيدًا، وحديثَنا بَشاشَة، وأفضَلَ أيّامك يومَ تنوبُ فيه عنّا، وتدافعُ، ولم تَتعدّ ذلك إلى قَبيحٍ، خذ هذه الألف درهم وابسُط لنا العذرَ، أنتَ أشعَرُهم.

* * *

ومن أجمل أشعاره

كُتْمَان

سَأَمْنَحُ طَرْفِي حِينَ أَلْقَاكِ غَيْرَكُمْ
لِكَيْما يَرَوا أنّ الهَوَى حَيْثُ أنْظُرُ
وَأُكْنِي بِأسْمَاءِ سِوَاكِ وَأتَّقِي
زِيَارَتَكُمْ والحُبُّ لاَ يَتَغَيَّرُ

* * *

نظرة إلى السماء

أُقَلِّبُ طَرْفي في السَّماءِ لَعَلَّهُ
يُوافِقُ طَرْفي طَرْفَها حِينَ تَنْظُرُ

* * *

هي الداء

يَغُورُ - إذَا غارَتْ - فُؤَادِي وَإنْ تَكُنْ
بِنَجْدٍ يَهِمْ مِنّي الفُؤَادُ إلَى نَجْدِ
أتَيْتُ بَنِي سَعْدٍ صَحِيحًا مُسَلَّمًا
وَكَانَ سَقَامُ القَلْبِ حُبٌّ بَنِي سَعْدِ

* * *

تَذَكُّر...

تَـذَكَّـرَ مِـنْـهـا الـقَـلْـبُ مَـا لَـيْـسَ نَـاسِـيًـا
مَــلاَحَــةَ قَــولٍ يَــوْمَ قــالَــتْ وَمَــعْــهَــدَا
فَــإِنْ كُــنْــتَ تَــهْــوَى أو تــرِيــدُ لِــقَــاءَنَــا
عَـلَـى خَـلْـوَةٍ فـأَضْـرِبْ لَـنَـا مِـنْـك مَـوْعِـدَا
فَــقُــلْــتُ ولَــم أمْــلِــكْ سَــوابِــقَ عَــبْــرَةٍ
أَأَحْــسَــنُ مِــنْ هــذا ـ الـعـشِـيّـةَ ـ مَـقْـعَـدَا
فَــقَــالَــتْ أَخَــافُ الــكَــاشِــحِــيــنَ وَأَتَّــقِــي
عُـيُـونًـا مِـنَ الـواشِـيـنَ حَـولِـيَ شُـهَّـدَا[1]

* * *

ثابت ويزيد

إذَا قُـلْـتُ: مـا بِـي يـا بُـثَـيْـنَـةُ قَـاتِـلـي
مِـنَ الـوَجْـدِ، قَــالَــتْ: ثَـابِـتٌ وَيَـزِيـدُ
وإِنْ قُـلْـتُ: رُدِّي بَـعْـضَ عَـقْـلِـي أعِـشْ بِـهِ
مَـعَ الـنَّـاسِ، قـالَـتْ: ذَاكَ مِـنْـكَ بَـعِـيـدُ
فَـلاَ أنَـا مَـرْدُودٌ بِـمـا جِـئْـتُ طَـالِـبًـا
وَلاَ حُــبُّــهــا فِــيــمَــا يَــبِــيــدُ يَــبِــيــدُ
إذَا فَــكَّــرتْ قَــالــتْ: قَــد أدرَكْــتُ وُدَّهُ
وَمَــا ضَــرَّنــي بُــخْــلٌ فَــفِــيــمَ أجُــودُ

(1) الكاشحين: المبغضين. الواشين: المُخبرين بالأسرار.

يـمُـوتُ الـهَـوَى مِـنّـي إذا مـا لَـقِـيـتُـهـا
وَيَـحْـيـا إذا فـارَقْـتُـهـا فَـيـعـودُ

* * *

أفي الناس أمثالي

أفِـي الـنَّـاس أمْـثَـالِـي أحَـبُّـوا فَـحُـبّـهُـمْ
كَـحُـبِّـيَ أمْ أحْـبَـبْـتُ مِـنْ بَـيْـنِـهـم وَحْـدِي؟
وهَـلْ هـكـذا يَـلْـقَـى الـمُـحـبُّـونَ قَـبْـلَـنَـا
بِـمَـا وَجِـدُوا أوْ لَـمْ يَـجِـدْ أحَـدٌ وَجْـدِي؟
إذا مـا دَنَـتْ زِدْتُ اشـتـيـاقًـا وإن نَـأَتْ
جَـزِعْـتُ لِـمَـنْـأى الـدّارِ مِـنْـهـا ولِـلْـبُـعْـدِ
أبـى الـقَـلْـبُ إلّا حُـبَّ بَـثْـنَـةَ لـم يُـرِدْ
سِـواهـا وحُـبُّ الـقَـلْـبِ بَـثْـنَـةَ لا يُـجْـدِي

* * *

ليلة البان

خَـلِـيـلَـيّ عُـوجَـا الـيَـوْمَ حـتّـى تُـسَـلِّـمـا
عَـلَـى عَـذْبَـةِ الأنْـيـابِ طـيِّـبـةِ الـنَّـشْـرِ[1]
فـإنَّـكـمـا إنْ عُـجْـتُـمَـا بِـيَ سَـاعَـةً
شَـكَـرْتُـكُـما حَـتَّـى أُغَـيَّـبَ فـي قَـبْـرِي[2]

(1) الأنياب: الأسنان. النّشر: الرائحة العطرة.

(2) عجتما: ملتما.

أَلِـمَّـا بِـهَـا ثُـمَّ ٱشْـفَـعَـا لـي وَسَـلِّـمـا
عَلَيْها سَقَاهَا الله مِنْ سَائِغِ القَطْرِ[1]

وَبُـوحَـا بِـذِكْـرِي عِـنْـد بَـثْـنَـةَ وٱنْـظُـرا
أَتَـرْتَـاحُ يَـوْمًـا أَمْ تَـهَـشُّ إِلَـى ذِكْـري[2]
فَـإِنْ لـم تَـكُـنْ تَـقْـطَـعْ قِـوَى الـوُدِّ بَـيْـنَـنَـا
وَلَـمْ تَـنْـسَ مَـا أَسْـلَـفْـتُ فـي سَـالِـفِ الـدَّهْـرِ

فَـسَـوفَ يُـرَى مِـنْـهـا ٱشْـتِـيَـاقٌ وَلَـوْعَـةٌ
بِـبَـيْـنٍ وَغَـرْبٌ مِـنْ مَـدَامِـعِـهـا يَـجْـرِي[3]

وَإِنْ تَـكُ قَـدْ حَـالَـتْ عَـنِ الـعَـهْـدِ بَـعْـدَنَـا
وَأَصْـغَـتْ إِلَـى قَـوْلِ الـمُـؤَنِّـبِ وَالـمُـزْرِي[4]
فَـسَـوفَ يُـرَى مِـنْـهـا صُـدُودٌ وَلَـمْ تَـكُـنْ
بِـنَـفْـسِـيَ مِـنْ أَهْـلِ الـخِـيَـانَـةِ والـغَـدْرِ

أَعُـوذُ بِـكَ الـلَّـهُـمَّ أَنْ تَـشْـحَـطَ الـنَّـوَى
بِـبَـثْـنَـةَ فـي أَدْنَـى حَـيَـاتِـي وَلاَ حَـشْـرِي[5]
وَجَـاوِرْ إِذَا مَـا مِـتُّ بَـيْـنـي وَبَـيْـنَـهـا
فَـيَـا حَـبَّـذَا مَـوْتـي إِذَا جَـاوَرَتْ قَـبْـرِي

(1) سائغ القطر: المطر العذب.
(2) تهش: تحتفي، تسرّ.
(3) غرب: دمع.
(4) يزري: يعيب.
(5) تشحط: تبعد. النوى: الدار.

هِيَ البَدْرُ حُسْنًا والنِّسَاءُ كَوَاكِبٌ
وَشَتَّانَ ما بَيْنَ الكَواكِبِ والبَدْرِ
لَقَدْ فُضِّلَتْ حُسْنًا عَلَى النَّاسِ مِثْلَما
عَلَى ألْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ

أيبكي حمامُ الأيكِ مِنْ فَقد إلْفِهِ
وَأصبر؟ ما لي عَنْ بثينةَ مِنْ صَبْرِ
يقولون: مَسْحورٌ يُجَنُّ بذِكْرها
فَأُقْسِم ما بي من جُنونٍ ولا سِحْرِ
وأُقْسِمُ لا أنساكِ ما ذرَّ شارقٌ
وما خبَّ آلٌ في مُلَمَّعَةٍ قَفْرِ
وما لاحَ نَجْمٌ في السَّماءِ مُعَلَّقٌ
وما أورق الأغصان مِنْ ورقِ السِّدْرِ
لقدْ شُغِفَتْ نفسي بثينَ بذِكْركم
كما شُغِفَ المَخْمورُ يا بُثْنَ بالخَمْرِ

ذكرتُ مُقامي ليلةَ البانِ قابضًا
على كَفٌ حَوراءِ المدامِعِ كالبَدْرِ
فَكِدْتُ ولَمْ أمْلِكْ إليها صبابَةً
أهيمُ وفاضَ الدَّمْعُ مِنّي على النَّحْرِ[1]
فيا ليتَ شِعْري هلْ أبيتنَّ لَيلَةً
كَلَيلَتِنا حتّى نرى ساطِعَ الفَجْرِ

(1) نحري: أعلى صدري.

تَـجـودُ عـلـيـنـا بـالـحـديـثِ وتـارَةً

تـجـودُ عـلـيـنـا بـالـرُّضـابِ مِـنَ الـثَّـغْـرِ

فـلـيـتَ إلـهـي قـد قـضـى ذاكَ مَـرَّةً

فَـيَـعْـلَـمَ ربِّـي عـنـدَ ذلِـكَ مـا شُـكْـري

ولَـو سـألَـتْ مِـنِّـي حـيـاتِـي بـذلْـتُـهـا

وجُـدتُ بـهـا إن كـانَ ذلِـكَ مِـنْ أمْـري

مَـضَـى لـي زَمَـانٌ لَـوْ أُخَـيَّـرُ بَـيْـنَـهُ

وَبَـيْـنَ حَـيَـاتـي خـالِـدًا آخِـرَ الـدَّهْـرِ

لَـقُـلْـتُ: ذَرُونـي سَـاعَـةً وَبُـثَـيْـنَـةً

عَلَى غَفْلَةِ الوَاشِينَ ثُمَّ اقْطَعُوا عُمْرِي

مُـفَـلَّـجَـةُ الأنـيَـابِ لَـوْ انَّ رِيـقَـهـا

يُدَاوَى بِهِ المَوْتَى لَقَامُوا مِنَ القَبْرِ[1]

إذَا مَا نَظَمْتُ الشِّعْرَ في غَيْرِ ذِكْرِهَا

أبَى - وأبِيهـا - أنْ يُطَاوِعَنِي شِعْرِي

فَلاَ أنْعَمَتْ بَعْدي وَلاَ عِشْتُ بَعْدَهَا

وَدَامَتْ لَنَا الدُّنْيَا إلى مُلْتَقَى الحَشْرِ

* * *

الهَوَى...

ألا لا يـضـيـرُ الـحـبُّ مـا كـانَ ظـاهـرًا

ولـكـنَّ مـا أخـفـى الـفـؤادُ يـضـيـرُ

(1) مفلّجة الأنياب: مفرّقة الأسنان الأمامية، وهذه من علامات جمال الثغر.

ألا قـاتـلَ اللهُ الـهـوى كـيـف قـادنـي
كـمـا قـيـدَ مـغـلـولُ الـيَـدَيْـنِ أسـيـرُ

* * *

إلى الله أَشكو حُبَّها

إلَـى اللهِ أشْـكُـو لا إلَـى الـنَّـاس حُـبَّـهـا
وَلاَ بُـدَّ مِـنْ شَـكْـوَى حَـبِـيـبٍ يُـرَوِّعُ
ألاَ تَـتَّـقِـيـنَ الله فِـيـمَـنْ قَـتَـلْـتِـهِ
فـأمْـسَـى إلَـيْـكُـمْ خَـاشِـعًـا يَـتَـضَـرَّعُ

* * *

لقد فرح الواشون

لَـقَـدْ فَـرِحَ الـوَاشُـونَ أنْ صَـرَمَـتْ حَـبْـلِـي
بُـثَـيْـنَـةُ أوْ أبْـدَتْ لَـنَـا جـانِـبَ الـبُـخْـلِ[1]

يَـقُـولـون: مَـهْـلًا يـا جَـمِـيـلُ! وإنَّـنـي
لأقْـسِـمُ مـا لـي عَـنْ بُـثَـيْـنَـة مِـن مَـهْـلِ[2]

أحِـلْـمًـا! فَـقَـبْـلَ الـيَـوْمِ كـانَ أوانُـهُ
أمَ أخْـشَـى فَـقَـبْـلَ الـيَـوْمِ أوعِـدْتُ بـالـقَـتْـلُ[3]

---

(1) الواشون: ج الواشي، وهو النمّام. صرمت: قطعت. حبلي: حبل حبّي.

(2) يقولون: الضمير يعود إلى الأصدقاء و الأهل.

(3) أحلماً: أعقلاً. أوعد: هدّد.

لقد أنكحوا جهلًا نُبَيهًا ظَعِينَةً
لَطِيفَةَ طَيِّ البَطْنِ ذَاتَ شوًى خَدْلِ[1]

إذا ما تَرَاجَعْنا الّذي كانَ بَيننا
جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بالكُحْلِ[2]

فَلَوْ تَرَكَتْ عَقْلِي مَعِي ما طَلَبْتُها
وَلكِنْ طِلاَبِيها لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي[3]

فَيَا وَيْحَ نَفْسي! حَسْبُ نَفْسِي الّذي بِها
وَيَا وَيْحَ أهلي ما أصِيبَ بِهِ أهْلِي[4]

أرانيَ لا ألْقَى بُثَيْنَةَ مَرَّةً
مِنَ الدَّهْرِ إلا خائِفًا أوْ عَلَى رَحْلِ[5]

خَلِيلَيَّ فيما عِشْتُما هَلْ رَأيْتُمَا
قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي؟[6]

أبِيتُ مَعَ الهُلاَّكِ ضَيْفًا لأهْلِها
وأهْلي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذَوُو فَضْلِ[7]

---

(1) أنكحوا: زوّجوا. نبيه: زوج بثينة. ظعينة: امرأة. الكشح: الخصر. شوى: أطراف الجسم كاليدين والرجلين. خدل: سمين.

(2) تراجعنا: تذكرنا.

(3) طلابيها: طلبي بثينة.

(4) فيا ويح نفسي: ما أعظم مصيبة نفسي.

(5) على رحل: على ظهير البعير، أي مسافراً.

(6) خليلي: صديقي، يخاطب شخصين وهميين كعادة الشعراء القدامى.

(7) الهلاك: الشحاذون. موسعون: أغنياء.

ألا أيُّها البَيْتُ الّذي حِيلَ دونَهُ
بِنا أنتَ مِنْ بَيْتٍ، وَأهلُكَ مِنْ أهْلِ![1]

بِنا أنتَ مِنْ بَيْتٍ، وحَوْلَكَ لَذَّةٌ
وظِلُّكَ لَوْ يُسْطاعُ بِالبارِدِ السَّهْلِ![2]
ثَلاَثَةُ أبْياتٍ فَبَيْتٌ أحِبُّهُ
وَبَيْتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلاَ شَكلي[3]

كِلانَا بَكَى أو كادَ يَبْكِي صَبَابَةً
إلَى إلْفِهِ وأسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِي[4]
أعَاذِلَتي أكثَرتِ جَهْلًا مِنَ العَذْلِ
على غَيْرِ شَيْءٍ مِنْ مَلامي ولا عَذْلي[5]

نَأيْتُ فلم يُحْدِثْ لِيَ النَّأيُ سَلْوَةً
وَلَمْ ألفِ طُولَ النأيِ عَنْ خُلَّةٍ يُسْلي[6]
ولَسْتُ عَلى بَذْلِ الصَّفاءِ هَوِيتُها
وَلكِنْ سَبَتْنِي بالدَّلالِ وَبِالبُخْلِ[7]

---

(1) حيل: منع. بنا أنت من بيت: من: حرف جر زائد. والمعنى: إذا كنا نحن فيك أيها البيت، تضحي بيتاً عظيماً بواسطتنا، وكذلك أهلك يضحون عظماء!

(2) يسطاع: لغة من يستطاع.

(3) بيت أحبه: هو بيت بثينة قبل زواجها. وبيتان: هما بيت زوجها، وبيت الوشاة.

(4) الصبابة: الحب.

(5) أعاذلتي: يا لائمتي.

(6) نأيت: بعدت. السلوة: النسيان. الخلة: الصديقة.

(7) هويتها: أحببتها. سبتني: سحرتني بحبها. بالبخل: بالامتناع عن التلاقي.

أَلا لا أرَى إثْـنَـيْـنِ أَحْـسَـنَ شِـيـمَـةً
عَـلى حَدَثـانِ الدَّهْـرِ مِـنّي ومِنْ جمـلِ![1]
فـإنْ وُجِـدَتْ نَـعْـلٌ بـأَرْضٍ مَـضِـلَّـةٍ
مِـنَ الـدَّهْـرِ يَـوْمًـا فـاْعْـلَـمِـي أنّـهـا نَـعْـلي[2]

* * *

ما غاب خيالها

وقـدْ قُـلْـتُ فـي حُـبِّـي لـكُـمْ وصَـبـابَـتِـي
مَـحـاسـنَ شِـعْـرٍ ذِكْـرُهُـنَّ يَـطُـولُ
فَـمـا غـابَ عَـنْ عَـيْـنـي خَـيـالُـكِ لَـحْـظَـةً
ولا زالَ عَـنْـهـا، والـخَـيـالُ يَـزولُ

* * *

(1) حدثان الدهر: مصائب الدهر. جمل: يعني بها نفسه، أي جميل، والمعنى: أنا ونفسي أقوى اثنين على مصائب الدهر.

(2) مضلة: يضل المسافر فيها سبيله.

أَلاَ يا غُرابَ البَيْنِ وَيْحَكَ نَبِّني

بِعِلمِكَ في لُبْنَى وَأَنْتَ خَبِيرُ

فإنْ أَنْتَ لَمْ تُخْبِرْ بِشَيْءٍ عَلِمْتَهُ

فَلا طِرْتَ إلاَّ والجَنَاحُ كسيرُ

وَدُرْتَ بِأَعْدَاءٍ حَبِيبُكَ فِيهِمُ

كما قَدْ تَرَاني بالحَبِيبِ أدُورُ

قيس لبنى



قيس لُبْنى

(...- 68هـ/ 688م)

قيس بن ذرِيح بن سنة بن حذافة الكناني: شاعر من العُشّاق المتيَّمين. اشتهر بحبّ لبنى بنت الحباب الكعبيَّة. وهو من شعراء العَصْر الأموي، ومن سكّان المدينة. كان رضيعًا للحسين بن عليّ بن أبي طالب، أرْضَعَتْه أم قيس. وأخباره مع لبنى كثيرة جدًا، وشعره عالي الطبقة في التَّشْبيب ووَصف الشوق والحنين، بعضه مَجْموع في «ديوان»[1].

* * *

(1) خير الدين الزركلي. الأعلام 5/ 206.

أخباره
كما جاءت في كتاب
«الأغاني»

قال أبو الفرج الأصفهاني[1]:

أخبرني بخبر قيس ولُبْنَى امرأتِه جماعةٌ من مشايخنا في قِصَص متَّصلة ومنقطعة وأخبار منثورة ومنظومةٍ، فألّفتُ ذلك أجمعَ ليتّسق حديثُه إلاّ ما جاء مفردًا وعَسُر إخراجُه عن جملة النظم، فذكرته على حدة.

كان منزل قومه في ظاهر المدينة، وكان هو وأبوه من حاضِرة المدينة. وذكر خالد بن كلثوم أن منزله كان بسَرِف؛ واحتجّ بقوله:

الحمدُ لِلَّه قدْ أمسَتْ مُجاوِرَةً
أهلَ العَقيقِ وأمْسَيْنا على سَرِفِ

قالوا: فمرّ قيس لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خُزَاعة، فوقف على خَيْمة منها والحيّ خُلُوف[2]، والخيمةُ خيمة لُبْنَى بنت الحُبَاب الكَعْبيّة، فاستسقَى ماءً، فسقتْه وخرجتْ إليه به، وكانت امرأةً مَديدةَ القامةِ شَهْلاءَ[3]، حُلْوةَ المنظر والكلام. فلما رآها وقعتْ في نفسه، وشرب الماء. فقالت له: أتنزل فتتبرَّد عندنا؟

قال: نعم. فنزل بهم. وجاء أبوها فنحر له وأكرمه. فانصرف قيس وفي قلبه من لُبْنَى حَرٌّ لا يَطْفَأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ورُوي.

---

(1) الأغاني: 24/ 123.

(2) يقال: الحيّ خلوف، إذا خرج الرجال وبقيت النساء.

(3) الشهلاء: التي يخالط سواد عينيها زرقة.

ثم أتاها يومًا آخر وقد أشتدّ وجدُه بها، فسلّم، فظهرتْ له، وردّت سلامَه، وتحفّتْ به[1]؛ فشكا إليها ما يَجِدُ بها وما يَلْقَى من حبّها، وشكت إليه مثل ذلك، فأطالتْ، وعَرَفَ كلٌّ واحد منهما ما له عند صاحبه. فانصرف إلى أبيه وعلّمه وسأله أن يزوّجه إياها. فأبى عليه وقال: يا بنيّ، عليك بإحدى بناتِ عمّك فهنّ أحقُّ بك. وكان ذَرِيحٌ كثير المال موسِرًا، فأحبّ ألاّ يخرج ابنه إلى غريبة.

فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه أبوه به. فأتى أمّه، فشكا ذلك إليها، واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يحبّ. فأتى الحسينَ بن عليّ بن أبي طالب وابن أبي عتيق، فشكا إليهما ما به، وما ردّ عليه أبوه. فقال له الحسين: أنا أكْفيك. فمشى معه إلى أبي لُبْنَى. فلما بَصُر به، أعظَمَه ووثَب إليه، وقال له: يا ابن رسول اللّه، ما جاء بك؟ ألاَ بَعَثْتَ إليّ، فأتيتك! قال: إن الذي جئتُ فيه يُوجب قصدَك، وقد جئتك خاطبًا ابنَتَك لُبنى لقيس بن ذَرِيح.

فقال: يا ابن رسول الله، ما كنّا لنعْصِيَ لك أمرًا، وما بنا عن الفتى رغبة، ولكن أحَبّ الأمر إلينا أن يخطُبها ذَرِيح أبوه علينا، وأن يكون ذلك عن أمره، فإنّا نخاف إن لم يَسْعَ أبوه في هذا أن يكون عارًا وسُبَّةً علينا.

فأتى الحسينُ، رضي اللّه عنه، ذَرِيحًا وقومَه، وهم مجتمعون، فقاموا إليه إعظامًا له، وقالوا له مثل قول الخُزَاعِيِّين. فقال لذَرِيح: أقسمتُ عليك إلاّ خطبتَ لُبْنَى لابنك قيس.

قال: السمعَ والطاعةَ لأمرك.

فخرج معه في وجوه من قومه حتى أَتَوْا لُبْنَى، فخطبها ذرِيحٌ على ابنه إلى أبيها، فزوّجه إيّاها، وزُفّت إليه بعد ذلك.

---

(1) أي: رحّبت به.

فأقامت معه مدّة لا يُنكر أحدٌ من صاحبه شيئًا. وكان أبرَّ الناس بأُمّه، فألهتْه لُبْنى وعكوفُه عليها عن بعض ذلك، فوجَدتْ أمُّه في نفسها وقالت: لقد شغلتْ هذه المرأةُ ابني عن بِرّي؛ ولم تَرَ للكلام في ذلك موضعًا حتى مرِض مرضًا شديدًا. فلمَّا بَرَأ من علّته، قالت أمّه لأبيه: لقد خَشِيتُ أن يموت قيسٌ وما يتركُ خَلَفًا، وقد حُرِم الولدَ من هذه المرأة، وأنت ذو مال، فيصيرُ مالك إلى الكَلاَلة[1]، فزوّجه بغيرها، لعلّ اللّه أن يرزقه ولدًا، وألحّت عليه في ذلك.

فأمْهل قيسًا حتى إذا اجتمع قومه، دعاه فقال: يا قيسُ، إنك اعتللتَ هذه العلَّةَ فخِفْتُ عليك، ولا ولدَ لك، ولا لي سواك. وهذه المرأة ليست بوَلُود؛ فتزوَّج إحدى بناتِ عمِّك، لعلّ اللّه أن يَهَب لك ولدًا تَقَرُّ به عينُك وأعيُنُنا.

فقال قيس: لست متزوِّجًا غيرها أبدًا.

فقال له أبوه: فإن في مالي سَعَةً، فَتَسَرَّ بالإماء[2].

قال: ولا أسوؤها بشيءٍ أبدًا واللّه.

قال أبوه: فإني أُقسِم عليك إلاّ طلّقْتَها.

فأبى وقال: الموتُ والله عليَّ أسهل من ذلك، ولكني أخيِّرك خَصْلةً من ثلاث خصال.

قال: وما هي؟

قال: تتزوّج أنت، فلعلَّ الله أن يرزُقَك ولدًا غيري.

قال: فما فيّ فَضْلة لذلك.

---

(1) الكلالة: الأقرباء ما عدا الوالد والولد.

(2) أي: انكح أمةً من إمائي، لكي تنجب ولداً.

قال: فدَعني أرتحل عنك بأهلي واصْنَع ما كنتَ صانعًا لو متُّ في علَّتي هذه.

قال: ولا هذه.

قال: فأدَعُ لُبْنَى عندك وأرتحِلُ عنك، فلعلِّي أسلوها، فإني ما أحبّ بعد أن تكون نفسي طيِّبة أنها في خيالي.

قال: لا أرضَى أو تطلِّقَها، وحلَف لا يَكُنُّه سقفُ بيت أبدًا حتى يطلِّق لُبْنَى، فكان يخرج فَيقِفُ في حرّ الشمس، ويَجيء قيسٌ فيقف إلى جانبه فيُظِلّه بردائه ويَصْلَى هو بحرّ الشمس حتى يَفَيءَ الفيءُ، فينصرفَ عنه، ويدخل إلى لُبنى، فيعانقها وتعانقه، ويبكي وتبكي معه، وتقول له: يا قيس، لا تُطِعْ أباك، فتَهلك وتُهلكَني. فيقول: ما كنت لأُطيعَ أحدًا فيك أبدًا. فيقال: إنه مكث كذلك سنةً.

* * *

طلاقه لبنى ثم ندمه

قال ليث بن عمرو إنّه سمع قيسًا يقول لزيد بن سليمان: هَجرني أبواي في لُبْنى عشرَ سنين، أستأذِنُ عليهما فيردّاني حتى طلّقتُها. قال ابن جُرَيج: وأُخبرت أن عبد اللّه بن صَفْوان الطويل لَقي ذَرِيحًا أبا قيس، فقال له: ما حمَلك على أن فرّقت بينهما؟ أما علمتَ أن عمر بن الخطاب قال: ما أُبالي أفرقتُ بينهما أو مشيتُ إليهما بالسيف.

فلما بانت لُبنى بطلاقِهِ إيّاها، لم يلبَثْ حتى استُطِير عقلُه وذُهِب به، ولحقه مثلُ الجنون. وتذكّر لُبنى وحالَها معه، فأسِف، وجعل يبكي ويَنْشج أَحرَّ نَشيج[1].

وبلغها الخبرُ، فأرسلتْ إلى أبيها ليَحتَملها، وقيل: بل أقامت حتى انقَضَتْ عدّتها وقيسٌ يدخل عليها. فأقبل أبوها بهَوْدَج على ناقة وبإبل تحملُ أثاثها. فلما رأى ذلك قيس، أقبلَ على جاريتها، فقال: وَيْحَكِ! ما دهانِي فيكم؟

فقالت: لا تسألني وسَلْ لُبْنَى. فذهب ليُلِمَّ بِخبائها فيسألَها، فمنعه قومُها. فأقبلت عليه امرأة من قومه فقالت له: ما لَكَ، وَيْحَك، تسأل كأنك جاهلٌ أو تَتَجاهل! هذه لُبْنى تَرْتَحل الليلةَ أو غدًا. فسقط مغشيًّا عليه لا يَعْقِل، ثم أفاق وهو يقول:

---

(1) النشيج: أشد البكاء.

وإنّي لَمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنِي بالبُكا
حِذارَ الّذي قد كانَ أو هُوَ كائنُ
وقالوا: غدًا أو بَعْدَ ذاكَ بِلَيْلَةٍ
فِراقُ حبيبٍ لَمْ يَبِنْ وهو بائِنُ[1]
وما كُنْتُ أخشى أن تكونَ مَنِيّتي
بِكَفَّيْكِ إلّا أنّ ما حانَ حائِنُ[2]

وقال:

يَقُولُونَ: لُبْنَى فِتْنَةٌ كُنْتَ قَبْلَها
بِخَيْرٍ فلا تَنْدَمْ عَلَيْها وَطَلِّقِ
فَطاوَعْتُ أعْدائي وَعَاصَيْتُ نَاصِحي
وأقْرَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ المُتَخَلِّقِ
وَدِدْتُ وَبَيْتِ اللهِ أنِّي عَصَيْتُهُمْ
وَحُمِّلْتُ في رِضْوَانِها كُلَّ مُوبِقِ[3]
كَأنّي أرى النّاسَ المُحِبِّينَ بَعْدَها
عُصَارَةَ ماءِ الحَنْظَلِ المُتَفَلِّقِ[4]
فَتُنْكِرُ عَيْنِي بَعْدَها كُلَّ مَنْظَرٍ
وَيَكْرَهُ سَمْعي بَعْدَها كُلَّ مَنْطِقِ

---

(1) بانَ: فارقَ، ابتعَدَ.

(2) حان حائِن: حَصَل المقدَّر.

(3) المَوْبِق: المهلكة.

(4) الحنظل: نبات يُضرب به المثل في المرارة. المتفلّق: الناضج.

وقال: وسقط غرابٌ قريبًا منه، فجعل يَنْعَق مرارًا، فتطيّر منه وقال:

لَـقَـدْ نـادَى الـغُـرابُ بِـبَـيْـنِ لُـبْـنَـى
فَـطَـارَ الـقَـلْـبُ مِـنْ حَـذَرِ الـغُـرابِ[1]

وَقَــالَ: غــدًا تَـبَــاعَــدُ دَارُ لُــبْــنَــى
وَتَــنْــأَى بَــعْــدَ وُدٍّ واقْــتِـــرابِ[2]
فَـقُـلْـتُ: تَـعِـسْـتَ وَيْـحَـكَ مِـنْ غُـرابٍ
وكـانَ الـدَّهْـرَ سَـعْـيُـكَ فـي تَـبَـابِ[3]

وقال أيضًا وقد منعه قومه من الإلمام بها:

ألاَ يـا غُـرابَ الـبَـيْـنِ وَيْـحَـكَ نَـبِّـنـي
بِـعِـلْـمِـكَ فـي لُـبْـنَـى وَأَنْـتَ خَـبِـيـرُ[4]
فـإنْ أَنْـتَ لَـمْ تُـخْـبِـرْ بِـشَـيْءٍ عَـلِـمْـتَـهُ
فَــلا طِــرْتَ إلاَّ والــجَــنَــاحُ كَــسِــيــرُ
وَدُرْتَ بِــأَعْــدَاءٍ حَــبِــيــبُــكَ فِــيــهِــمُ
كَــمــا قَــدْ تَـرَانــي بــالــحَــبِــيــبِ أدُورُ

وقال أيضًا وقد أُدخِلتْ هودجَها، ورحلتْ وهي تَبكي ويتبعها:

ألا يـا غـرابَ الـبَـيْـنِ هَـلْ أَنْـتَ مُـخْـبِـرِي
بِـخَـيْـرٍ كـمـا خَـبَّـرْتَ بـالـنَّـأْيِ وَالـشَّـرِّ

(1) بَيْن لبنى: فراقها.

(2) تباعد: تتباعد. تنأى: تبتعد.

(3) تباب: خسارة.

(4) نبّني: أنبئني.

وَقُلْتَ كَذاكَ الدَّهْرُ ما زَالَ فَاجِعًا
صَدَقْتَ! وَهَلْ شَيْءٌ بِباقٍ على الدَّهْرِ؟

ولما ارتحل قومُها مَليًّا، ثم علم أن أباها سَيَمْنَعه من المسير معها، وقف ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينه، فكَرّ راجعًا ونظر إلى أثر خُفِّ بعيرها، فأكبَّ عليه يقبِّله، ورجع يقبِّل موضع مَجْلسها وأثَرَ قَدَمِها. فلِيمَ على ذلك وعنّفه قومُه على تَقْبِيل التراب؛ فقال:

وَمَا أَحْبَبْتُ أَرْضَكُمُ وَلَكِنْ
أُقَبِّلُ إِثْرَ مَنْ وَطِئَ التُّرَابا

لَقَدْ لاَقَيْتُ مِنْ كَلَفِي بِلُبْنَى
بَلاَءً ما أُسِيغُ بِهِ الشَّرَابا

إذا نادَى المُنَادِي بِاسْمِ لُبْنَى
عَيِيتُ فما أُطِيقُ له جوَابا

وقال وقد نظر إلى آثارها:

أَلاَ يا رَبْعَ لُبْنَى ما تَقُولُ؟
أَبِنْ لي اليَومَ ما فَعَلَ الحُلُولُ

فَلَوْ أَنَّ الدِّيارَ تُجِيبُ صَبًّا
لَرَدَّ جَوَابِيَ الرَّبْعُ المُحِيلُ

وَلَوْ أنّي قَدِرتُ غَدَاةَ قَالَتْ:
غَدَرْتَ وَمَاءُ مُقْلَتِها يَسِيلُ

نَحَرْتُ النَّفْسَ حِينَ سَمِعْتُ مِنْها
مَقَالَتَها وذاك لها قَلِيلُ

شَفَيْتُ غَلِيلَ نَفْسِي مِنْ فِعَالي
ولم أُغْبَرْ بلا عَقْلٍ أَجُولُ

كَـأَنّـي وَالِـهٌ بِـفِـراقِ لُـبْـنَـى
تَـهِـيـمُ بِـفَـقْـدِ وَاحِـدِهـا ثَـكُـولُ[1]

ألاَ يـا قَـلْـبُ وَيْـحَـكَ كُـنْ جَـلِـيدًا
فَـقَـدْ رَحَـلَـتْ وَفَـاتَ بـهـا الـذَّمـيـلُ[2]

فـإنَّـكَ لا تُـطِـيـقُ رُجُـوعَ لُـبْـنَـى
إذا رَحَـلَـتْ وإنْ كَـثُـرَ الـعَـويـلُ

وَكَـمْ قَـدْ عِـشْـتَ كَـمْ بـالـقُـرْبِ مِـنْـهـا
ولـكـنَّ الـفِـراقَ هـو الـسَّـبِـيـلُ

فَـصَـبْـرًا كُـلُّ مُـؤتَـلِـفَـيْـنِ يَـوْمًـا
مِـنَ الأيّـامِ عَـيْـشُـهُـمَـا يَـزُولُ

قال: فلمّا جَنَّ عليه الليلُ، وانفرد وأوَى إلى مضجعه، لم يأخذه القرارُ، وجعل يتململ فيه تململ السّليم، ثم وثب حتى أتى موضع خِبائها، فجعل يتمرَّغ فيه ويبكي ويقول:

بِـتُّ وَالـهَـمُّ يـا لُـبَـيْـنَـى ضَـجِـيـعِـي
وجَـرَتْ، مُـذْ نَـأَيْـتِ عَـنِّـي، دُمُـوعـي

وَتَـنَـفَّـسْـتُ إذْ ذَكَـرْتُـكِ حَـتَّـى
زَالَـتِ الـيـومَ عَـنْ فُـؤَادِي ضُـلُـوعـي

أتَـنَـاسَـاكِ كَـيْ يُـرِيـغَ فُـؤَادِي
ثُـمَّ يَـشْـتَـدُّ عِـنْـدَ ذَاكَ وَلُـوعـي

يـا لُـبَـيْـنَـى فَـدَتْـكِ نَـفْـسِـي وَأهْـلـي
هَـلْ لِـدَهْـرٍ مَـضَـى لـنـا مِـنْ رُجُـوعِ

(1) الثكول: الأمّ التي فقدت وحيدها.

(2) الذميل: السير السريع اللَّيِّن.

اشتاقها فقصدها وقال شعرًا

خرج قيسٌ في فِتْية من قومه، واعتلَّ على أبيه بالصيد، فأتى بلادَ لُبْنَى، فجَعَلَ يتوقَّعُ أن يراها أو يرى من يُرسلُ إليها. فاشتغل الفتيانُ بالصيد؛ فلما قضَوْا وطرَهم منه، رجعوا إليه وهو واقف، فقالوا له: قد عرفنا ما أردتَ بإخراجنا معك، وأنك لم تُرِدِ الصَّيدَ، وإنما أردتَ لقاءَ لبنى، وقد تعذَّر، فانصرِف الآن. فقال:

وما حَائِماتٌ حُمْنَ يَوْمًا وَلَيْلَةً
على الماءِ يَخْشَيْنَ العِصِيَّ حَوَانِ
لواغِبُ لا يَصْدُرْنَ عَنْهُ لِوُجْهَةٍ
ولا هُنَّ مِنْ بَرْدِ الحِيَاضِ دَوَانِ
يَرَيْنَ حَبَابَ الماءِ والمَوْتُ دُونَهُ
فَهُنَّ لأصْوَاتِ السُّقَاةِ رَوانِ
بأجْهَدَ منّي حَرَّ شَوْقٍ وَلَوْعَةٍ
عَلَيْكِ ولكِنّ العَدُوَّ عَدَانِي
خليليَّ إنّي مَيِّتٌ أو مُكَلِّمٌ
لُبَيْنَى بِسِرِّي فامْضِيَا وَذَرانِي

قال: فأقاموا معه حتى لقيَها، فقالت له: يا هذا، إنك مُتَعَرِّضٌ لنفسك وفاضِحي، فقال لها:

صَدَعْتِ القَلْبَ ثم ذَرَرْتِ فيهِ
هواكِ فَلِيمَ فَالْتأمَ الفُطُورُ
تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَم يبلُغ شَرابٌ
ولا حزنٌ ولَمْ يَبْلُغْ سُرورُ

وجعل قيس يعاتب نفسه في طاعته أباه في طلاقه لُبْنَى ويقول: فألاّ رحلتُ بها عن بلده، فلم أرَ ما يفعل ولم يَرَني! فكان إذا فَقَدني، أقلع عمّا يفعله، وإذا فقدتُه، لم أتحرَّج من فعله! وما كان عليّ لو اعتزلتُه، وأقمت في حيِّها أو في بعض بَوَادي العرب، أو عَصَيْته فلم أُطعْه! هذه جنايتي على نفسي، فلا لومَ على أحد! وهأنذا ميِّتٌ مما فعلته، فمن يردُّ رُوحي إليّ! وهل لي سبيل إلى لُبنى بعد الطلاق؟! وكلَّما قرَّع نفسه وأنَّبها بلونٍ من التقريع والتأنيب، بكى أحرَّ بكاء، وألصق خدّه بالأرض، ووضعه على آثارها، ثم قال:

بَانَتْ لُبَيْنَى فأنْتَ اليوم مَتْبُولُ
وإنَّكَ اليَوْمَ بَعْدَ الحَزْمِ مَخْبُولُ
أَسْتَوْدِعُ اللهَ لُبْنَى إذْ تُفَارِقُني
عَنْ غَيْرِ طَوْعٍ وَأمْرُ الشَّيْخِ مَفْعُولُ
وَقَدْ أراني بِلُبْنَى حَقَّ مُقْتَنِعٍ
والشَّمْلُ مجْتَمِعٌ والحَبْلُ مَوْصولُ

وقال:

ألاَ لَيْتَ لُبْنَى في خَلاءٍ تَزُورُني
فأشْكُو إليها لَوْعَتي ثُمَّ تَرْجعُ
صَحَا كُلُّ ذي لُبٍّ وَكُلُّ مُتَيَّمٍ
وَقَلْبي بِلُبْنَى ما حَيِيتُ مُرَوَّعُ

فيا مَنْ لِقَلْبٍ ما يُفِيقُ مِنَ الهَوَى
ويا مَنْ لِعَيْنٍ بالصَّبَابَةِ تَدْمَعُ

وقال:

قَدْ قُلْتُ لِلقَلْبِ: لا لُبْنَاكَ فَاعْتَرِفِ
واقْضِ اللُّبانَةَ ما قَضَّيْتَ وانْصَرِفِ
قَدْ كُنْتُ أحْلِفُ جَهْدًا لا أفَارِقُها
أُفٍّ لِكَثْرَةِ ذاكَ القِيلِ والحَلِفِ
حَتَّى تَكَنَّفَنِي الواشُونَ فَافْتُلِتَتْ
لا تَأْمَنَنْ أبَدًا مِنْ غِشِّ مُكْتَنِفِ
الحَمْدُ للهِ قَدْ أمْسَتْ مُجَاوِرَةً
أهْلَ العَقِيقِ وأمْسَيْنا على سَرِفِ[1]
حَيٌّ يَمَانُونَ والبَطْحاءُ مَنْزِلُنَا
هذا لَعَمْرُكَ شَمْلٌ غَيْرُ مُؤْتَلِفِ

قالوا: فلمّا أصبح، خرجَ متوجهًا نحوَ الطريق الذي سلكته يتنسَّم روائحَها، فسنَحتْ له ظبيةٌ، فقصدها، فهربت منه، فقال:

ألاَ يا شِبْهَ لُبْنَى لا تُرَاعِي
ولا تَتَيَمَّمِي قُلَلَ القِلاَعِ[2]
فَوَا كَبِدِي وَعَاوَدَني رُداعِي
وكانَ فِراقُ لُبْنَى كالخِدَاعِ

---

(1) سرِف: على ستة أميال من مكة. والعَقيق: واد باليمامة.

(2) قُلَل القِلاع: قِمم الجبال.

تَكَنَّفَنِي الوُشَاةُ فَأَزعجُوني
فَيَا للناسِ لِلْواشِي المُطَاعِ
فأصْبَحْتُ الغَدَاةَ أَلُومُ نَفْسِي
على شَيْءٍ وَلَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
كَمَغْبُونٍ يَعَضُّ على يَدَيْهِ
تَبَيَّنَ غَبْنَه بَعْدَ البِياعِ
بِدَارِ مَضِيعَةٍ تَرَكَتْكَ لُبْنَى
كذاك الحَيْنُ يُهْدَى لِلْمُضَاعِ
وَقَدْ عِشْنَا نَلَذُّ العَيْشَ حِينًا
لَوَ انَّ الدَّهرَ للإنْسانِ راعِ
ولكِنَّ الجَمِيعَ إلى افْتِراقٍ
وأسْبَابُ الحُتُوفِ لها دوَاعِ

* * *

محاولة أمّه كي تُنسيه لُبْنى

بعثتْ أمُّ قيس بن ذَريح بفتيات من قومه إليه، يَعِبْنَ إليه لُبْنَى، ويَعِبْنَه بجَزَعه وبكائه ويتعرَّضْنَ لوصاله، فأتيْنَه فاجتمعن حوالَيْه، وجعلن يمازحْنَه وَيَعِبْنَ لُبْنَى عنده يعيِّرْنَه ما يفعله. فلما أطلْنَ، أقبل عليهنّ وقال:

يَــقَــرُّ بــعَــيْــنــي قُــرْبُــهــا ويــزيــدُنــي
بــهــا كَــلَــفًــا مَــنْ كــان عِــنْــدي يَــعِــيــبُــهــا

وكَــمْ قــائــلٍ قــد قــال: تُــبْ، فَــعَــصَــيْــتُــه
وتِــلْــكَ لَــعَــمْــرِي تَــوْبــةٌ لا أتــوبُــهــا

فــيــا نَــفْــسُ صَــبْــرًا لــســتِ والــلّــهِ فــاْعْــلَــمــي
بِــأوَّلِ نَــفْــسٍ غــابَ عــنــهــا حــبــيــبُــهــا

وقيل: فانصرفْنَ عنه إلى أُمّه فأيأسْنَها من سَلْوته. وقيل: اجتمع إليه النسوة، فأطلْنَ الجلوسَ عنده، وحادَثْنه وهو ساهٍ عنهنّ، ثمّ نادَى: يا لُبْنَى! فقلن له: ما لكَ وَيْحك!

فقال: خَدِرتْ رجلي، ويقال: إن دعاء الإنسان باسم أحبِّ الناس إليه يُذْهب عنه خَدَر الرِّجل، فناديتُها لذلك. فقمن عنه، وقال:

إذا خَــدِرَتْ رِجْــلــي تَــذَكَّــرْتُ مَــنْ لــهــا
فَــنَــادَيْــتُ لُــبــنَــى بــاسْــمِــهــا وَدَعَــوْتُ

دَعَوْتُ التي لو أنّ نَفْسِي تُطِيعُني
لَفَارَقْتُها مِنْ حُبِّها وَقَضَيتُ

بَرَتْ نَبْلَها للصَّيدِ لُبْنَى وَرَيَّشَتْ
وَرَيَّشْتُ أُخرَى مِثْلَها وَبَرَيْتُ

فَيَا لَيْتَ أنّي مُتُّ قَبْلَ فِرَاقِها
وَهَلْ تُرْجِعَنْ فَوْتَ القَضِيَّةِ لَيْتُ

فَصِرْتُ وَشَيْخِي كالذي عَثَرَتْ بِهِ
غَدَاةَ الوَغَى بَيْنَ العُدَاةِ كُمَيْتُ

فإنْ يَكُ تَهْيَامِي بِلُبْنَى غَوَايةً
فَقَدْ، يا ذريحُ بنُ الحُبَابِ، غَوَيْتُ

فلا أنتَ ما أمَّلْتَ فيَّ رَأَيْتَهُ
وَلاَ أنا لُبْنَى والحَيَاةَ حَوَيْتُ

فَوَطِّنْ لِهُلْكِي مِنْكَ نَفْسًا فإنّني
كَأنّك بي قَدْ، يا ذَرِيحُ، قَضَيْتُ

* * *

مَرَضُه

مرِض قيس، فسأل أبوه فتياتِ الحي أن يَعُدْنه ويحدِّثنه لعلَّه يتسلَّى أو يعلَق بعضَهن، ففعلن ذلك. ودخل إليه طبيب ليداويَه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده، جَعَلْنَ يحادثنه، وأطلنَ السؤال عن سبب علّته، فقال:

عِيدَ قيسٌ من حبِّ لُبنى ولُبنى
داءُ قَيْسٍ، والحُبُّ دَاءٌ شَدِيدُ

وإذا عَادَني العوائدُ يومًا
قالتِ العينُ: لا أرى مَنْ أُريدُ

لَيْتَ لُبْنَى تَعُودُني ثمّ أقْضِي
إنَّها لا تَعُودُ فِيمَنْ يَعُودُ

قال له الطبيب: منذُ كم هذه العلّةُ؟ ومنذُ كم وجَدتَ بهذه المرأة ما وجدتَ؟

فقال:

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَها قَبْلَ خَلْقِنَا
ومِنْ بَعْدِ ما كُنَّا نِطافًا وفي المَهْدِ

فَزَادَ كما زِدْنا فأصْبَحَ نَامِيًا
فَلَيْسَ وإنْ مُتْنَا بِمُنْفَصِمِ العَهْدِ

وَلَـكِـنَّـهُ بـاقٍ عـلـى كُـلِّ حـادثٍ
وَزَائِـرُنـا فـي ظُـلْـمَـةِ الـقَـبْـرِ والـلَّـحْـدِ

قال له الطبيب: إن مما يُسْلِيك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوئ والمعايب وما تَعافُه النفس من أقذار بني آدم؛ فإن النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخفّ ما بها.

فقال:

إذا عِـبـتُـهـا شَـبَّـهْـتُـهـا الـبَـدْرَ طـالـعًـا
وحَـسْـبُـكَ مـن عَـيْـبٍ لـهـا شَـبَـهُ الـبَـدْرِ
لَقَدْ فُضِّلتْ لبنَى على النّاسِ مِثْلَ ما
عـلـى ألـفِ شـهْـرٍ فُـضِّـلـتْ لـيـلـةُ الـقَـدْرِ

ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة، فأنّبه ولامه، وقال له: يا بنيّ! اللّهَ اللّهَ في نفسِك! فإنَّكَ ميِّت إن دمتَ على هذا! فقال:

وفــي عُــرْوَةَ الــعُــذْرِيّ إن مُــتُّ أُسْــوَةٌ
وعَـمْـرِو بن عَـجْـلانَ الّـذي قَـتَـلَـتْ هِـنْـدُ[1]
وبـي مِـثْـلُ مـا مـاتـا بـه غَـيْـرَ أنـنـي
إلـى أَجَـلٍ لـم يـأتِـنـي وَقـتُـه بَـعْـدُ
هـلِ الـحـبُّ إلّا عَـبْـرةٌ بـعْـدَ زَفْـرَةٍ
وحَـرٌّ عـلـى الأحـشـاء لـيـس لـه بَـرْدُ
وفَـيْـضُ دمـوعٍ تَـسْـتَـهِـلُّ إذا بـدا
لَـنـا عَـلَـمٌ مِـنْ أرضِـكـمْ لـم يـكُـنْ يَـبْـدو

(1) يشير إلى عروة الذي هام بعَفْراء، وإلى عمرو بن هند الذي هام بهند، وكِلاهما من عشّاق العرب المشهورين.

زوّجوه لينسى لبنى

قال خالد بن جَمَل: فلمّا طال على قيس ما به، أشار قومه على أبيه بأن يزوِّجه امرأةً جميلة، فلعلّه أن يسلو بها عن لُبنى. فدعاه إلى ذلك، فأباه وقال:

لـقَـدْ خِـفْـتُ ألّا تَـقْـنَـعَ الـنّـفـسُ بَـعْـدَهـا
بـشـيءٍ مِـنَ الـدُّنْـيـا وإن كـانَ مَـقْـنَـعـا
وأزجُـرُ عـنْـهـا الـنّـفـسَ إذْ حـيـلَ دونـهـا
وتـأبَـى إلـيـهـا الـنَّـفْـسُ إلّا تَـطَـلُّـعـا

فأعلمهم أبوه بما ردَّ عليه. قالوا: فمُرْه بالمَسير في أحياء العرب والنزول عليهم، فلعلَّ عينه أن تقع على امرأةٍ تعجِبه. فأقسم عليه أبوه أن يفعل. فسار حتى نزل بحيٍّ من فَزارة، فرأى جاريةً حسناء قد حسرَتْ برقُعَ خَزٍّ عن وجهها وهي كالبدر ليلة تِمِّه، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟

قالت: لُبْنَى.

فسقط على وجهه مغشيًّا عليه. فنضَحتْ على وجهه ماء، وارتاعت لِما عراه، ثم قالت: إن لم يكن هذا قيسَ بن ذَرِيح، إنه لمجنون! فأفاق فَنَسبتْه، فانتسب. فقالت: قد علمتُ أنك قيس، لكن نَشَدْتُك بالله وبحقّ لُبْنَى إلاّ أصبت من طعامنا. وقدَّمتْ إليه طعامًا، فأصاب منه بإصبَعه.

وركب، فأتى على أَثَره أخٌ لها كان غائبًا، فرأى مُناخ ناقته، فسألهم عنه، فأخبروه، فركب حتى ردَّه إلى منزله، وحلف عليه ليُقيمنَّ عنده شهرًا.

فقال له: لقد شَقَقْت عليَّ، ولكنِّي سأتبع هواك، والفَزاريُّ يزداد إعجابًا بحديثه وعقله وروايته، فعرض عليه الصِّهْرَ.

فقال له: يا هذا، إن فيك لرغبةً، ولكنِّي في شغل لا يُنتفع بي معه. فلم يزل يعاوده والحيُّ يلومونه ويقولون له: قد خشينا أن يصير علينا فعلُك سُبَّة. فقال: دعوني، ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام. فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصِّهرَ بينه وبينه على أخته المسمَّاة لُبنى، وقال له: أنا أسوق عنها صَداقها.

فقال: أنا والله يا أخي أكثر قومي مالًا، فما حاجتك إلى تكلُّف هذا؟ أنا سائر إلى قومي وسائق إليها المَهْر. ففعل، وأعلم أباه الذي كان منه، فسَرَّه وساق المهرَ عنه. ورجع إلى الفزاريين حتى أدخلت عليه زوجته، فلم يَرَوْهُ هَشَّ إليها، ولا دنا منها، ولا خاطبها بحرفٍ، ولا نظر إليها. وأقام على ذلك أيامًا كثيرة. ثم أعلمهم أنه يريد الخروج إلى قومه أيامًا، فأذِنوا له في ذلك، فمضى لوجهه إلى المدينة.

وكان له صديق من الأنصار بها؛ فأتاه فأعلمه الأنصاريُّ أن خبر تزويجه بلغ لُبنى فغمَّها وقالت: إنّه لغَدَّار! ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي إلى التزويج، فأنا الآن أُجيبهم، وقد كان أبوها شكا قيسًا إلى معاوية وأعلمه تعرُّضه لها بعد الطلاق. فكتب إلى مروان بن الحكم يُهدِر دمه إن تعرّض لها، وأمر أباها أن يزوّجها رجلًا يعرف بخالد بن حِلِّزة من بني عبد اللّه بن غَطَفان- ويقال: بل أمره بتزويجها رجلًا من آل كَثِير بن الصَّلْت الكِنْديِّ حليفِ قريش- فزوّجها أبوها منه. قال: فجعل نساءُ الحيِّ يقلن ليلةَ زفافها:

لُـــبَــيْـــنـــى زوجُـــهـــا أصـــبـــ
ـحَ لا حُـــــرٌّ بِـــــواديـــــهِ
لـــه فَـــضْـــلٌ عـــلـــى الـــنّـــاس
بـــمـــا بـــاتَـــتْ تُـــنـــاجـــيـــهِ

وقـــيــــسٌ مَــيّــــتٌ حـــيٌّ
صَـــريـــعٌ فـــي بَـــواكـــيـــهِ
فَـــلا يُـــبْـــعِـــدُه الـــلّـــهُ
ويُـــغْـــدًا لـــنَـــواعـــيـــهِ

قال: فجزع قيس جزعًا شديدًا، وجعل يبكي أحرَّ بكاء. ثم ركب من فَوره حتى أتى محَلَّة قومها، فنادته النساء: ما تصنع الآن ها هنا! قد نُقِلَت لُبنى إلى زوجها!. وجعل الفتيانُ يعارضونه بهذه المقالة وما أشبهها، وهو لا يُجيبهم حتى أتى موضع خِبائها، فنزل عن راحلته، وجعل يُمرِّغ خدَّه على ترابها، ويبكي أحرَّ البكاء. ثم قال:

إلى اللهِ أشْكُو فَقْدَ لُبْنَى كما شَكا
إلَى الـلـهِ فَـقْـدَ الـوَالِـدَيْـنِ يَـتِـيـمُ
يَـتِـيـمٌ جَـفَـاهُ الأَقْـرَبُـونَ فَـجِـسْـمُـهُ
نَـحِـيـلٌ وَعَـهْـدُ الـوَالِـدَيْـنِ قَـدِيـمُ
بَـكَـتْ دَارُهُـمْ مِـنْ نَـأْيِـهِـمْ فَـتَـهَـلَّـلَـتْ
دُمُـوعِـي فَـأَيَّ الـجـازِعَـيْـنِ أَلُـومُ
أمُسْتَعْبِرًا يَبْكِي مِنَ الشَّوْقِ والـهَوَى
أَمَ آخَـرَ يَـبْـكـي شَـجْـوَهُ وَيَـهِـيـمُ
وَمَـنْ يَـتَـعَـلَّـقْ حُـبَّ لُـبْـنَـى فُـؤَادُهُ
يَـمُـتْ أو يَـعِـشْ مـا عـاشَ وهـو كـلـيـمُ[1]
فـإنّـي وإنْ أجْـمَـعْـتُ عَـنْـكِ تَـجَـلُّـدًا
عـلـى الـعَـهْـدِ فـيـمـا بَـيْـنَـنَـا لَـمُـقِـيـمُ

(1) كليم: مجروح.

وإنّ زَمـانًـا شَـتَّـتَ الـشَّـمْـلَ بَـيْـنَـنَـا
وَبَـيْـنَـكُـمُ فـيـه الـعِـدَى لَـمَـشُـومُ[1]
أفـي الـحَـقِّ هـذا أنّ قَـلْـبَـكِ فَـارِغٌ
صَـحِـيـحٌ وَقَـلْـبِـي فـي هَـوَاكِ سَـقِـيـمُ[2]

وقد قيل: إن هذه الأبيات ليست لقيس وإنما خُلطت بشعره، ولكنَّها في هذه الرواية منسوبة إليه.

* * *

(1) مشوم: مشؤوم.

(2) سقيم: مريض.

شعره بعد رحيل لبنى إلى زوجها

قال: وقال أيضًا في رحيل لُبنى عن وطنها وانتقالها إلى زوجها بالمدينة وهو مقيم في حيّها:

بانَتْ لُبَيْنَى فَهاجَ القَلْبَ مَنْ بانا
وَكانَ ما وَعَدتْ مَطْلًا وَلَيَّانا[1]

وأخْلَفَتْكَ مُنًى قَدْ كُنْتَ تأمُلُها
فأصْبَحَ القَلْبُ بَعْدَ البَيْنِ حَيْرانا

ألـلـهُ يَدْري وما يَدْري بهِ أحَدٌ
ماذا أُجَمْجِمُ مِنْ ذِكراكِ أحْيَانا[2]

يا أكْمَلَ النَّاسِ مِنْ قَرْنٍ إلى قَدَمٍ
وأحْسَنَ النّاسِ ذا ثَوْبٍ وَعُرِيانا

نِعْمَ الضَّجِيعُ بُعَيْدَ النَّومِ تَجْلُبُهُ
إلَيْكَ مُمْتَلِئًا نَوْمًا وَيَقْظانا

لا بَارَكَ اللهُ فِيمَنْ كانَ يَحْسَبُكُمْ
إلاّ على العَهْدِ حَتَّى كان ما كانا

(1) المطْل والليّان: التسويف.

(2) أجمجم: أتكلم بكلام غير مفهوم.

حتّى اسْتَفَقْتُ أخيرًا بعدما نُكِحَتْ
كأنّما كان ذاك القَلْبُ حيرانا
قَدْ زَارَني طَيْفُكُمْ لَيْلًا فأَرّقَني
فَبِتُّ للشَّوقِ أُذْرِي الدَّمْعَ تَهْتانا[1]
إنْ تَضرِمي الحَبْلَ أو تُمْسِي مُفَارِقَةً
فالدَّهْرُ يُحْدِثُ للإنْسَانِ أَلْوَانا
وَمَا أرَى مِثْلَكُمْ في الناسِ مِنْ بَشَرٍ
فَقَدْ رَأيْتُ بِهِ حَيًّا ونِسْوَانا

* * *

(1) تهتانا : بغزارة.

أبو لبنى يشكوه إلى معاوية

وقال ابن قُتَيبة في خبره عن الهَيْثَم بن عَدِيّ، ورواه عمر بن شَبَّة أيضًا: أن أبا لُبنى شخَص إلى معاوية، فشكا إليه قيسًا وتعرُّضَه لابنته بعد طلاقه إيَّاها. فكتب معاوية إلى مروانَ أو سعيدِ بن العاص يُهْدِر دمَه إن أَلَمَّ بها وأن يشتدَّ في ذلك. فكتب مروان أو سعيد في ذلك إلى صاحب الماء الذي ينزله أبو لُبْنَى. ووجَّهتْ لُبنى رسولا قاصدًا إلى قيس تُعلمه ما جَرى وتُحذِّره. وبلغ أباه الخبرُ، فعاتبه وقال له: انتهى بك الأمر إلى أن يُهْدِر السُّلطان دمك! فقال:

فإنْ يَحْجُبُوها أوْ يَحُلْ دُونَ وَصْلِها
مَقَالَةُ وَاشٍ أوْ وَعِيدُ أَمِيرِ

فَلَنْ يَمْنَعُوا عَيْنَيَّ مِنْ دَائِمِ البُكا
وَلَنْ يُذْهِبُوا ما قَدْ أجَنَّ ضَمِيري

إلى اللهِ أشْكُو ما أُلاقِي مِنَ الهَوَى
ومِنْ حُرَقٍ تَعْتَادُنِي وَزَفِيرِ

وَمِنْ حَرَقٍ لِلْحُبِّ في باطِنِ الحَشَا
وَلَيْلٍ طَوِيلِ الحُزْنِ غَيْرِ قَصِيرِ

سَأَبْكي عَلَى نَفْسِي بِعَيْنٍ غَزِيرَةٍ
بُكَاءَ حَزِينٍ في الوَثَاقِ أسِيرِ

وَكُنَّا جميعًا قَبْلَ أنْ يَظْهَرَ الهَوَى
بِأنْعَمِ حَالَيْ غِبْطَةٍ وَسُرُورِ

فَـمَـا بَـرِحَ الـواشـونَ حَـتَّـى بَـدَتْ لَـهُـمْ
بُـطُـونُ الـهَـوَى مَـقْـلُـوبَـةً لِـظُـهُـورِ
لَقَدْ كُنْتِ حَسْبَ النَّفْسِ لَوْ دَامَ وَصْلُنا
وَلَـكِـنَّـمـا الـدُّنْـيَـا مَـتَـاعُ غَـرُورِ

وقال:

إنْ تَـكُ لُـبْـنَـى قَـدْ أَتَـى دُونَ قُـرْبِـهـا
حِـجَـابٌ مَـنِـيـعٌ مـا إلـيـه سَـبِـيـلُ
فـإنَّ نَـسِـيـمَ الـجَـوِّ يَـجْـمَـعُ بَـيْـنَـنَـا
وَنُـبْـصِـرُ قَـرْنَ الـشَّـمْـسِ حِـيـنَ تَـزُولُ
وأرْواحُـنَـا بـالـلَّـيْـلِ فـي الـحيِّ تَـلْـتَـقِـي
وَنَـعْـلَـمُ أنّـا بـالـنَّـهَـارِ نَـقِـيـلُ[1]
وَتَـجْـمَـعُـنَـا الأَرْضُ الـقَـرَارُ وَفَـوْقَـنـا
سَـمَـاءٌ نَـرَى فـيـهـا الـنُّـجُـومَ تَـجُـولُ

حجَّ قيس بن ذَرِيح، واتَّفق أن حجَّت لُبْنَى في تلك السنة، فرآها ومعها امرأة من قومها، فدَهِش وبقي واقفًا مكانه، ومضت لسبيلها. ثم أرسلت إليه بالمرأة تُبلغه السَّلام، وتسأله عن خبره؛ فألْفَتْه جالسًا وحدَه يُنشد ويبكي:

ويـومَ مـنّـى أعْـرَضْـتِ عـنّـي فـلـمْ أقُـلْ
بِـحـاجـةِ نـفـسٍ عـنـد لُـبْـنـى مـقـالُـهـا
وفـي الـيـأسِ لـلـنـفـسِ الـمـريـضـةِ راحـةٌ
إذا الـنَّـفْـسُ رامَـتْ خُـطَّـةً لا تَـنـالُـهـا

(1) نقيل: نأخذ القيلولة، وهي النوم بعد الظهر.

فدخلتْ خباءه، وجعلتْ تحدّثه عن لُبنى، ويحدّثها عن نفسه مَلِيًّا، ولم تُعْلِمْه أنّ لُبنى أرسلتْها إليه. فسألها أن تُبلغها عنه السَّلام، فامتنعت عليه؛ فأنشأ يقول:

إذا طَلَعَتْ شمسُ النهارِ فَسَلِّمي
فآيةُ تَسْليمي عَليكِ طُلُوعُها

بعَشْرِ تَحيَّاتٍ إذا الشّمسُ أشْرقتْ
وعَشْرٍ إذا اصفرَّتْ وحان رُجُوعُها

ولو أبْلَغَتْها جارةٌ قَوْليَ اسلَمِي
بَكَتْ جَزَعًا وارفَضَّ منها دُمُوعُها

وبانَ الذي تُخفي من الوَجْد في الحَشَى
إذا جاءَها عنِّي حديثٌ يَرُوعُها

وقَضى الناسُ حجَّهم وانصرفوا. فمرض قيس في طريقه مرضًا شديدًا أَشْفَى منه على الموت، فلم يأتِه رسولها عائدًا، لأن قومها رأوْه وعلموا به؛ فقال:

أَلُبْنَى لَقَدْ جَلَّتْ عَلَيْكِ مُصِيبَتي
غَداةَ غَدٍ إذْ حَلَّ ما أتَوقَّعُ

تُمَنِّينَنِي نَيْلًا وَتَلْوِينَني بِهِ
فَنَفْسِيَ شَوْقًا كُلَّ يَوْمٍ تَقَطَّعُ

وَقَلْبُكِ قَطُّ ما يَلِينُ لِمَا يَرَى
فَوَا كَبِدِي قَدْ طَالَ هذا التَّضَرُّعُ

أَلُومُكِ في شَأْنِي وأنتِ مُلِيمَةٌ
لَعَمْرِي وَأَجْفَى لِلْمُحِبِّ وأقْطَعُ

أخُبِّرتِ أنّي فيكِ مَيِّتُ حَسْرَتي
فَمَا فَاضَ مِنْ عَيْنَيْكِ لِلْوَجْدِ مَدْمَعُ
وَلكِنْ لَعَمْرِي قَد بَكيتُكِ جاهِدًا
وإنْ كان دَائي كُلُّهُ مِنْكِ أجْمَعُ
صَبِيحَةَ جَاءَ العَائِدَاتُ يَعُدْنَنِي
فَظَلَّتْ عليَّ العَائِداتُ تَفَجَّعُ
فَقَائِلَةٌ: جِئْنَا إلَيْهِ وَقَدْ قَضَى
وَقَائِلَةٌ: لا، بَلْ تَرَكْنَاهُ يَنْزِعُ
فَمَا غَشِيَتْ عَيْنَيْكِ مِنْ ذاك عَبْرَةٌ
وَعَيْني على ما بي بِذِكْرَاكِ تَدْمَعُ
إذا أنْتِ لم تَبْكي عليَّ جِنَازَةً
لَدَيْكِ فَلاَ تَبْكي غَدًا حِينَ أُرْفَعُ

قال: فبلَّغتْها الأبياتُ، فجزِعتْ جزعًا شديدًا، وبكت بكاءً كثيرًا. ثمّ خرجتْ إليه ليلًا على موعد، فاعتذرت وقال: إنما أبْقِي عليك وأخشى أن تُقْتَلَ، فأنا أتحاماكَ لذلك، ولولا هذا لما افترقنا. وودّعته وانصرفتْ.

وقال خالد بن كُلْثوم: فبلغه أنّ أهلها قالوا لها: إنه عَليل لما به، وإنه سيموت في سفره هذا. فقالت لهم لتدفَعهم عن نفسها: ما أراهُ إلا كاذبًا فيما يدَّعي ومتعلّلًا لا عَليلًا. فبلغه ذلك فقال:

تَكَادُ بِلاَدُ اللهِ يا أمَّ مَعْمَرٍ
بِمَا رَحُبَتْ يَوْمًا عَلَيَّ تَضِيقُ
تُكَذِّبني بالوُدِّ لُبْنَى وَلَيْتَها
تُكَلَّفُ مِنِّي مِثْلَهُ فَتَذُوقُ

وَلَوْ تَعْلَمِينَ الغَيْبَ أيقَنْتِ أنّني
لَكُمْ والهَدَايا المُشْعَرَاتِ صَدِيقُ
تَتُوقُ إلَيْكِ النَّفْسُ ثمَّ أرُدُّها
حَيَاءً ومِثْلِي بالحَياءِ حَقِيقُ

أَذُودُ سَوَامَ النَّفْسِ عَنْكِ وما لَه
عَلى أحَدٍ إلاّ عَلَيْكِ طَرِيقُ
فإنّي وَإنْ حَاوَلْتِ صَرْمي وَهِجْرَتي
عَلَيْكِ مِنَ احْدَاثِ الرَّدَى لَشَفِيقُ
وَلَمْ أرَ أيّامًا كَأيّامِنا الَّتي
مَرَرْنَ علينا والزَّمَانُ أنِيقُ
وَوَعْدُكِ إيّانَا وَلَوْ قُلْتِ عَاجِلٌ
بَعِيدٌ كما قَدْ تَعْلَمِينَ سَحِيقُ
وَحَدَّثْتَنِي يا قَلْبُ أنَّكَ صَابِرٌ
على البَيْنِ مِنْ لُبْنَى فَسَوْفَ تَذُوقُ
فَمُتْ كَمَدًا أوْ عِشْ سَقِيمًا فإنَّما
تُكَلِّفُني ما لا أرَاكَ تُطِيقُ
أطَعْتَ وُشاةً لم يَكُنْ لَكَ فِيهِمُ
خَلِيلٌ ولا جَارٌ عَلَيْكَ شَفِيقُ
فإنْ تَكُ لَمّا تَسْلُ عَنْها فإنَّني
بها مُغْرَمٌ صَبُّ الفُؤادِ مَشُوقُ
يَهِيجُ بِلُبْنَى الدّاءُ مِنّي وَلَمْ تَزَلْ
حُشَاشَةُ نَفْسِي لِلْخُرُوجِ تَتُوقُ

بِـلُـبْـنَـى أُنـادَى عِـنْـد أوَّلِ غَـشْـيَـةٍ
وَلَـوْ كُـنْـتِ بَـيْـنَ الـعَـائِـدَاتِ أُفـيـقُ
إذا ذُكِـرَتْ لُـبْـنَـى تَـجَـلَّـتْـكَ زَفْـرَةٌ
وَيَـثْـنِـي لَـكَ الـدَّاعـي بـهـا فَـتُـفِـيـقُ
شَـهِـدْتُ عـلـى نَـفْـسِـي بَـأَنَّـكِ غـادَةٌ
رَدَاحٌ وَأَنَّ الـوَجْـهَ مِـنْـكِ عَـتِـيـقُ
وأنَّـكِ لا تَـجْـزِيـنَـنـي بِـصَـحَـابَـةٍ
وَلاَ أنـا لـلـهِـجْـرَانِ مِـنْـكِ مُـطِـيـقُ
وأنَّـكِ قَـسَّـمْـتِ الـفُـؤَادَ فَـنِـصْـفُـهُ
رَهِـيـنٌ وَنِـصْـفٌ فـي الـحِـبَـالِ وَثِـيـقُ
صَـبُـوحـي إذا مـا ذَرَّتِ الـشَّـمْـسُ ذِكْـرُكُـم
ولـي ذِكْـرُكُـمْ عِـنْـدَ الـمَـسَـاءِ غَـبُـوقُ
إذا أنـا عَـزَّيْـتُ الـهَـوَى أو تَـرَكْـتُـهُ
أتَـتْ عَـبَـراتٌ بـالـدُّمُـوعِ تَـسُـوقُ
كَـأنَّ الـهَـوَى بـيـن الـحَـيَـازِيـمِ والـحَـشَـا
وبَـيْـنَ الـتَّـراقـي والـلَّـهـاةِ حَـرِيـقُ
فـإنْ كُـنْـتِ لـمّـا تَـعْـلَـمي الـعِـلْـمَ فـاسألي
فَـبَـعْـضٌ لِـبَـعْـضٍ فـي الـفَـعَـالِ فَـؤُوقُ
سَـلِـي: هَـلْ قَـلاَنِـي مِـنْ عَـشِـيرٍ صَـحِـبْـتُـهُ
وَهَـلْ مَـلَّ رَحْـلِـي فـي الـرِّفـاقِ رَفِـيـقُ
وَهَـلْ يَـجْـتَـوِي الـقَـوْمُ الـكـرامُ صَـحَـابـتـي
إذا اغْـبَـرَّ مَـخْـشِـيُّ الـفِـجـاجِ عَـمِـيـقُ

وأكْـتُـمُ أسـرَارَ الـهَـوَى فَـأُمِـيـتُـهـا
إذا بــاح مَــزّاحٌ بِــهِــنَّ بَــرُوقُ

سَعَـى الـدَّهْـرُ والـواشُـونَ بَيْـني وبَيْـنَـهـا
فَـقُـطِّـعَ حَـبْـلُ الـوَصْـلِ وَهْـوَ وَثِـيـقُ

هَـلِ الـصَّـبْـرُ إلاّ أن أَصُـدَّ فَـلا أُرَى
بِـأَرْضِـكِ إلاّ أنْ يَـكُـونَ طَـرِيـقُ

* * *

قصته مع زوجها

قال: ثم أتى قومَه فاقتطع قطعةً من إبله وأعلم أباه أنه يريد المدينة ليبيعها ويَمْتارُ[1] لأهله بثمنها. فعرَف أبوه أنه إنما يريد لُبْنَى، فعاتبه وزجره عن ذلك؛ فلم يقبل منه، وأخذ إبله وقدِم بها المدينة. فبينا هو يَعْرِضها إذ ساومه زوجُ لبنى بناقة منها وهما لا يتعارفان، فباعه إيّاها. فقال له: إذا كان غَدٌ، فأْتِنِي في دار كَثيرِ بن الصَّلْت فاقبِض الثمن.

قال: نعم.

ومضى زوج لُبْنَى إليها، فقال لها إني ابتعتُ ناقة من رجل من أهل البادية، وهو يأتينا غدًا لقبض ثمنها، فأَعِدِّي له طعامًا، ففعلتْ. فلمَّا كان من الغد جاء قيس: فصوّت بالخادم: قُولي لسيّدك: صاحبُ الناقة بالباب. فعرفتْ لُبنَى نغْمَته، فلم تقل شيئًا. فقال زوجها للخادم: قولي له: ادخل، فدخل فجلس. فقالت لُبْنَى للخادم: قولي له: يا فَتى، وما لي أراك أشعثَ أغْبَر؟ فقالت له ذلك. فتنفَّس ثم قال لها: هكذا تكون حالُ مَنْ فارق الأحبَّة واختار الموتَ على الحياة، وبكى.

فقالت لها لُبْنَى: قولي له: حدِّثْنا حديثَك. فلما ابتدأ يحدّث به كشفت الحجابَ، وقالت: حَسْبُك! قد عرفنا حديثَك! وأسْبَلتِ الحجابَ. فبُهت ساعة

(1) امتار لعياله أو لنفسه: جمع الطعام والمؤونة.

لا يتكلّم ثمّ انفجر باكيًا ونهض فخرج. فناداه زوجها: وَيْحَك! ما قصتك؟ ارجع اقبض ثمن ناقتك، وإن شئتَ زِدْناك. فلم يكلِّمه وخرج فاغترز في رَحْلِه ومضى. وقالت لُبنى لزوجها: وَيْحك! هذا قيس بن ذرِيح. فما حَمَلك على ما فعلت به؟

قال: ما عرفتُه. وجعل قيسٌ يبكي في طريقه، ويندُب نفسه ويوبِّخها على فعله، ثم قال:

أَتَبْكي على لُبْنَى وأَنتَ تَرَكْتَها؟
وكُنْتَ عَلَيْهَا بالمَلاَ أَنْتَ أقْدَرُ
فإنْ تَكُنِ الدُّنْيا بِلُبْنَى تَقَلَّبَتْ
عليّ فللدُّنْيا بُطُونٌ وأظْهُرُ
لَقَدْ كَان فيها لِلأَمَانَةِ مَوْضِعٌ
وللكفِّ مُرْتَادٌ وللعَيْنِ مَنْظَرُ
ولِلْحَائمِ العَطْشانِ رِيٌّ بِرِيقِها
ولِلْمَرِحِ المُخْتَالِ خَمْرٌ وَمُسْكِرُ
كأنِّيَ في أُرْجُوحَةٍ بَيْنَ أحْبُلٍ
إذا ذُكْرَةٌ مِنْهَا عَلى القَلْبِ تَخْطُرُ

* * *

مرض قيس

وعاد قيس إلى قومه بعد رؤيته إيَّاها، وقد أنكر نفسه وأسِف، ولحقه أمر عظيم؛ فأنكروه وما سألوه عن حاله، فلم يخبرهم؛ ومرض مرضًا شديدًا أشرف منه على الموت. فدخل إليه أبوه ورجال قومه، فكلَّموه وعاتبوه وناشدوه اللَّهَ. فقال: وَيْحَكم! أتَرَوْنِي أمرضتُ نفسي أو وجدت لها سَلْوةً بعد اليأس، فاخترتُ الهَمَّ والبَلاء، أوَلِي في ذلك صُنْع! هذا ما اختاره لي أبواي وقتلاني به. فجعل أبوه يبكي ويدعو له بالفرج والسَّلْوةِ. فقال قيس:

لَـقَـدْ عَـذَّبْـتَـنـي يـا حُـبَّ لُـبْـنـى
فَـقَـعْ إمّـا بِـمَـوْتٍ أوْ حَـيَـاةِ
فـإنّ الـمَـوْتَ أرْوَحُ مِـنْ حَـيَـاة
تَـدُومُ عـلـى الـتَّـبَـاعُـدِ والـشَّـتـاتِ
وَقَـالَ الأقْـرَبُـونَ: تَـعَـزَّ عَـنْـهـا
فَـقُـلْـتُ لَـهُـمْ: إذَنْ حَـانَـتْ وَفَـاتـي

قال: ودَسَّتْ إليه لُبنى بعد خروجه رسولًا، وقالت له: استنشِدْه، فإن سألك عن نسبتك، فانتسِبْ له خُزَاعيًا؛ فإذا أنشدكَ، فقل له: لِمَ تزوَّجتَ بعدها حتى أجابت إلى أن تتزوَّج بعدك؟ واحفَظْ ما يقول لك حتى تردَّه عليَّ. فأتاه الرسول فسلَّم، وانتسب خُزاعيًّا، وذكر أنه من أهل الشام.

وقال: فلمَ تزوّجتَ بعدها؟

فأخبره الخبر، وحلف له أنّ عينه ما اكتحلت بالمرأة التي تزوّجها وأنه لو رآها في نِسْوة ما عرفها، وأنه ما مدّ يدَه إليها ولا كلَّمها ولا كشف لها عن ثوب.

فقال له الرجل: فإني جارٌ لها، وإنها من الوجْدِ بك على حالٍ قد تمنَّى زوجها معها أن تكون بقربها لتصلُح حالُها بك؛ فحمِّلني إليها ما شئت أؤدِّه إليها.

قال: تَعُود إليَّ إذا أردتَ الرحيل، فعاد إليه لمَّا أراد الرحيل. فقال: تقول لها:

ألاَ حَيِّ لُبْنَى اليَوْمَ إنْ كُنْتَ غادِيا
وألْمِمْ بها مِنْ قَبْلِ أنْ لا تَلاَقيا

وَأَهْدِ لها مِنْكَ النَّصيحَةَ إنّها
قَليلٌ ولا تَخْشَ الوُشَاةَ الأدانيا

وَقُلْ: إنّني والراقِصَاتِ إلى مِنًى
بأجْبُلِ جَمْعٍ يَنْتَظِرْنَ المُنَادِيا

أَصُونُكِ عَنْ بَعْضِ الأُمُورِ مَضَنَّةً
وأَخْشَى عليكِ الكاشِحينَ الأعادِيَا

تَسَاقَطُ نَفْسِي حينَ أَلْقاكِ أنْفُسًا
يَرِدْنَ فما يَصْدُرْنَ إلاّ صَوَادِيَا

فإنْ أخِيَ أو أهْلِكَ فَلَسْتُ بِزَائِلٍ
لَكُمْ حافِظًا ما بَلَّ ريقٌ لِسَانِيَا

أقُولُ إذا نَفْسِي مِنَ الوَجْدِ أصْعَدَتْ
بها زفْرَةٌ تَعْتَادُني هيَ ما هِيَا

وَبَيْنَ الحَشَا والنَّحْرِ مِنّي حَرَارَةٌ
وَلَوْعَةُ وَجْدٍ تَتْرُكُ القَلْبَ سَاهِيَا
ألاَ لَيْتَ لُبْنَى لم تَكُنْ لي خُلَّةً
ولم تَرَني لُبْنَى وَلَمْ أدْرِ ما هِيا
سَلِي النَّاسَ: هَلْ خَبَّرْتُ سِرَّكِ مِنْهُمُ
أخا ثِقَةٍ أو ظاهِرَ الغِشِّ بادِيا

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ البُيُوتِ لَعَلَّني
أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ في السِّرِّ خالِيَا
وَإنّي لأسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ
لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
يَقُولُ ليَ الواشُونَ لَمَّا تَظَاهَرُوا
عَلَيْكِ وَأَضْحَى الحَبْلُ لِلْبَيْنِ وَاهِيا
لَعَمْرِي لَقَبْلَ اليَوْمِ حُمِّلْتَ ما تَرَى
وَأُنْذِرْتَ مِنْ لُبْنَى الذي كُنْتَ لاقيا
خَلِيلَيَّ ما لي قَدْ بَلِيتُ ولا أرَى
لُبَيْنَى على الهِجْرَانِ إلاّ كما هِيَا
ألا يا غُرَابَ البَيْنِ ما لَكَ كُلَّما
ذَكَرْتُ لُبَيْنَى طِرْتَ لي عَنْ شَمَالِيا
اعِنْدَكَ عِلْمُ الغَيْبِ أم لَسْتَ مُخْبِرِي
عَنِ الحَيِّ إلاّ بالذي قد بَدَا لِيَا
فَلاَ حَمَلَتْ رِجْلاَكَ عُشًّا لِبَيْضَةٍ
وَلاَ زَالَ عَظْمٌ مِنْ جَنَاحِكَ وَاهِيَا

أُحِبُّ مِنَ الأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ اسْمَهَا
وَأَشْبَهَهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مُدَانِيَا
وَمَا ذُكِرَتْ عِنْدِي لَهَا مِنْ سَمِيَّةٍ
مِنَ النَّاسِ إِلاّ بَلَّ دَمْعِي رِدَائِيَا
جَزِعْتُ عَلَيْهَا لَوْ أَرَى لِيَ مَجْزَعًا
وأَفْنَيْتُ دَمْعَ العَيْنِ لو كَانَ فَانِيَا
حَيَاتَكَ لا تُغْلَبْ عليها فإِنَّهُ
كَفَى بالذي تَلْقَى لِنَفْسِكَ ناهِيَا
أَشَوْقًا وَلَمّا تَمْضِ لي غَيْرُ لَيْلَةٍ
رُوَيْدَ الهَوَى حَتَّى يَغُبَّ لياليا
تَمُرُّ اللَّيالي والشُّهُورُ ولا أرَى
وَلُوعي بها يَزْدَادُ إلاّ تَمادِيَا
فَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَما
يَظُنّانِ كُلَّ الظَّنِّ أن لا تَلاَقيا
فما عن نَوَالٍ مِنْ لُبَيْنَى زيارَتي
وَلاَ قِلَّةُ الإِلْمامِ أَنْ كُنْتُ قالِيَا
ولكنَّها صَدَّتْ وَحُمِّلْتُ مِنْ هَوًى
لها ما يَؤُودُ الشامِخَاتِ الرَّوَاسِيا

وهذه القصيدة تُخْلَط بقصيدة المجنون التي في وزنها وعلى قافيتها لتشابههما، فقلَّما يتميّزان.

* * *

زوج لُبْنى يعاتبها

شُهِر أمر قيس بالمدينة وغَنَّى في شعره الغَريضَ ومَعْبَد ومالك وذووهم، فلم يبق شريف ولا وضيع إلاَّ سَمع بذلك، فأطربه وحزِن لقَيْس ممّا به. وجاءها زوجها فأنّبها على ذلك وعاتبها وقال: قد فضحتِني بذكرك.

فغضِبتْ وقالت: يا هذا، إني واللّه ما تزوّجتك رغبةً فيك ولا فيما عندك ولا دُلّس[1] أمري عليك، ولقد علمت أني كنتُ زوجته قبلك، وأنه أُكْرِه على طلاقي. وواللّه ما قبِلت التزويج حتى أُهدِر دمه إن أَلَمَّ بحيِّنا، فخشيتُ أن يحمله ما يجد على المخاطرة فيُقْتَلَ، فتزوّجتك. وأمْرك الآن إليك، ففارقْني، فلا حاجة بي إليك. فأمسك عن جوابها، وجعل يأتيها بجواري المدينة يغنِّينَها بشعر قيس كيما يستصلحَها بذلك؛ فلا تزدادُ إلاّ تماديا وبُعدًا، ولا تزال تبكي كلّما سمعتْ شيئًا من ذلك أحرَّ بكاءٍ وأشجاه.

* * *

(1) دُلّسَ: خفي.

بريكة تجمعهما سرًا

كانت امرأة من موالي بني زُهْرة يقال لها بُرَيْكة من أظرف النساء وأكرمِهنَّ، وكان لها زوج من قريش له دارُ ضيافة. فلما طالت عِلَّةُ قيس، قال له أبوه: إني لأعلم أن شفاءك في القرب من لُبنى، فارحَلْ إلى المدينة. فرحَل إليها، حتى أتى دارَ الضيافة التي لزوج بُرَيْكة. فوثَب غِلمانُه إلى رَحْل قيس ليحطُّوه. فقال: لا تفعلوا فلستُ نازلًا أو ألقى بُرَيْكة، فإنِّي قصدتها في حاجة، فإن وجدتُ لها عندها موضعًا، نزلتُ بكم وإلاّ رحلت. فأتوها فأخبروها. فخرجتْ إليه فسلَّمتْ عليه ورحَّبتْ به وقالت: حاجتُك مقضيةٌ كائنةً ما كانت، فانزِلْ.

فنزل ودنا منها فقال: أذكُر حاجتي؟

قالت: إن شئتَ.

قال: أنا قيس بن ذَريح.

قالت: حيَّاك اللّه وقرَّبك! إنّ ذكرك لجديدٌ عندنا في كل وقت.

قال: وحاجتي أن أرى لُبْنَى نظرةً واحدةً كيف شئت.

قالت: ذلك لك عليّ. فنزل بهم وأقام عندها وأخفتْ أمرَه، ثم أهدى لها هدايا كثيرةً وقال: لاطِفيها وزوجها بهذا حتى يأنَس بِك. ففعلتْ وزارتْها مرارًا، ثم قالت لزوجها: أخبِرْني عنك: أأنت خيرٌ من زوجي؟

قال: لا.

قالت: فلُبْنَى خير منّي؟

قال: لا.

قالت: فما بالي أزورها ولا تزورني؟

قال: ذلك إليها. فأتتها وسألتها الزيارةَ وأعلمْتها أن قيسًا عندها. فتسارعتْ إلى ذلك وأتتْها. فلمّا رآها ورأتْه، بكيَا حتى كادا يَتْلَفان. ثم جعلت تسأله عن خبره وعِلّته فيخبرُها، ويسألها فتخبره. ثم قالت: أنشِدْني ما قلتَ في علّتك، فأنشدها قولَه:

أُعَالِجُ مِنْ نفسي بقايا حُشَاشَةٍ
عَلَى رَمَقٍ، والعَائِدَاتُ تَعُودُ

فَإِنْ ذُكِرَتْ لُبْنَى هَشَشْتُ لِذِكْرِها
كَمَا هَشَّ لِلثَّدْيِ الدَّرُورِ وَلِيدُ

أُجِيبُ بِلُبْنَى مَنْ دَعَانِي تَجَلُّدًا
وَبِي زَفَرَاتٌ تَنْجَلِي وَتَعُودُ

تُعِيدُ إلى رُوحِي الحَيَاةَ وإنَّنِي
بِنَفْسِيَ لو عَايَنْتِنِي لأجُودُ

ألاَ لَيْتَ أيّامًا مَضَيْنَ تَعُودُ
فإنْ عُدْنَ يَوْمًا إنَّنِي لَسَعِيدُ

سَقَى دَارَ لُبْنَى حَيْثُ حَلَّتْ وَخَيَّمَتْ
مِنَ الأرْضِ مُنْهَلٌّ الغَمامِ رَعُودُ

عَلَى كُلِّ حَالٍ إنْ دَنَتْ أوْ تَبَاعَدَتْ
فإنْ تَدْنُ مِنّا فالدُّنُوُّ مَزِيدُ

فلا اليأسُ يُسْلِينِي ولا القُرْبُ نَافِعِي
وَلُبْنَى مَنُوعٌ ما تَكَادُ تَجُودُ
كأنّيَ مِنْ لُبْنَى سَلِيمٌ مُسَهَّدٌ
يَظَلُّ على أيدِي الرِّجالِ يَمِيدُ
رَمَتْنِي لُبَيْنَى في الفُؤَادِ بِسَهْمِها
وَسَهْمُ لُبَيْنَى لِلْفُؤَادِ صَيُودُ
سَلاَ كُلُّ ذي شَجْوٍ عَلِمْتُ مكانَهُ
وَقلْبِي لِلُبْنَى، ما حَيِيتُ، وَدُودُ
وَقَائِلَةٍ قَدْ مَاتَ أوْ هُوَ مَيِّتٌ
وَلِلنَّفْسِ مِنّي أنْ تفيضَ رَصِيدُ
أُعَالِجُ مِنْ نفسي بقايا حُشَاشَةٍ
على رَمَقٍ، والعَائِدَاتُ تَعُودُ

وعاتبته على تزوُّجه؛ فحلف أنه لم ينظر إليها ملءَ عينيه ولا دنا منها، فصدّقته. وقال:

وَلَقَدْ أرَدْتُ الصَّبْرَ عَنْكِ فَعَاقَنِي
عَلَقٌ بِقَلْبِي مِنْ هَوَاكِ قَدِيمُ
يَبْقَى على حَدَثِ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ
وعلى جَفَائِكِ إنَّهُ لَكَرِيمُ
فَصَرَمْتِهِ وَصَحَحْتِ وَهْوَ بِدَائِهِ
شَتّانَ بَينَ مُصَحَّحٍ وَسَقِيمُ
وَارَيْتِهِ زَمَنًا فَعَاذَ بِحِلْمِهِ
إنَّ المُحِبَّ عَنِ الحَبِيبِ حَلِيمُ

فلم يزل يومه معها يحدّثها ويشكو إليها أعفَّ شكوى وأكرمَ حديث حتى أمسى، فانصرفتْ ووعدتْه الرجوعَ إليه من غدٍ فلم ترجع. وشاع خبره، فلم تُرسل إليه رسولًا. فكتب هذه الأبيات في رُقعة، ودفعها إلى بُرَيْكة، وسألها أن تُوصلها إليها، ورحَل متوجِّهًا إلى معاوية، والأبياتُ:

بِنَفْسِيَ مَنْ قَلْبِي لَهُ الدَّهْرَ ذَاكِرُ
ومَنْ هو عَنِّي مُعْرِضُ القَلْبِ صَابِرُ
وَمَنْ حُبُّهُ يَزْدَادُ عِنْدِي جِدَّةً
وَحُبِّي لَدَيْهِ مُخْلِقُ العَهْدِ دَاثِرُ

* * *

يزيد بن معاوية يرقّ لحاله

ثم ارتحل إلى معاوية، فدخل إلى يزيد فشكا ما به إليه وامتدحه، فرَقَّ له وقال: سلْ ما شئت، إن شئتَ أن أكتب إلى زوجها فأُحتِّم عليه أن يطلِّقها، فعلتُ. قال: لا أريد ذلك، ولكن أحبّ أن أقيم بحيث تقيم في البلاد، أتعرَّفُ أخبارَها وأقنَعُ بذلك من غير أن يُهْدَر دمي. قال: لو سألتَ هذا من غير أن ترحلَ إلينا فيه لَما وجب أن تُمْنَعَه، فأقمْ حيث شئت؛ وأخذ كتاب أبيه له بأن يُقيم حيث شاء وأحبَّ ولا يَعتَرِضَ عليه أحد، وأزال ما كان كتب به في إهدار دمه؛ فقدم إلى بلده.

وبلغ الفَزاريّين خبرُه وإلمامُه بلُبنى، فكاتبوه في ذلك وعاتبوه. فقال للرسول: قلْ للفتى (يعني أخا الجارية التي تزوّجها): يا أخي ما غرَرتُك من نفسي، ولقد أعلمتك أني مشغول عن كل أحد، وقد جعلتُ أمرَ أُختك إليك، فأمْضِ فيه من حكمك ما رأيت. فتكرَّم الفتى عن أن يُفَرِّق بينهما، فمكثتْ في حِباله مدَّة ثم ماتت.

صاحب لبنى وقتيلها

أقبلتُ ذات يوم من الغابة فإذا رجل مجتمِعٌ في جانب ذلك الربع يَبْكي ويحدِّث نفسه. فسلَّمتُ، فلم يَرُدّ عليّ سلامًا. فقلت في نفسي: رجل مُلْتَبَسٌ به[1]، فولَّيتُ عنه. فصاح بي بعد ساعةٍ: وعليك السَّلام، هَلُمَّ هلمَّ إليَّ يا صاحب السَّلام!

فأتيته، فقال: أمَا واللَّهِ لقد فهمتُ سلامك ولكنِّي رجل مُشْتَرَك اللُّبّ يَضِلُّ عنّي أحيانًا ثم يعود إليّ.

فقلت: ومن أنت؟

قال: قيس بن ذَريح اللَّيثيّ.

قلت: صاحبُ لُبْنَى؟

قال: صاحبُ لُبنَى ولعَمْري وقتيلُها!. ثم أرسل عينيه كأنهما مَزَادتانِ؛ فما أنْسَى حسنَ قوله:

أبــائِــنَــةٌ لُــبْــنَــى ولــم تَــقْــطَــعِ الــمَــدَى
بِــوَصْــلٍ وَلا صُــرْمٍ فَــيَــيْــأسَ طــامِــعُ
يَــظَــلُّ نَــهَــارُ الــوَالِــهِــيــنَ نَــهَــارَهُ
وَتَــهْــدِئُــهُ فــي الــنــائِــمــيــنَ الــمَــضــاجِــعُ

(1) أي: مجنون.

وَلَوْلاَ رَجاءُ القَلْبِ أنْ تَعْطِفَ النَّوَى
لَمَا حَمَلَتْهُ بَيْنَهُنَّ الأضَالِعُ
لَهُ وَجَبَاتٌ إِثْرَ لُبْنَى كَأنَّها
شَقائِقُ بَرْقٍ في السَّحَابِ لَوَامِعُ
أبى اللهُ أنْ يَلْقَى الرَّشَادَ مُتَيَّمٌ
ألاَ كُلُّ أمْرٍ حُمَّ لا بُدَّ واقِعُ
هُمَا بَرَّحَا بي مُغولَيْنِ كلاهُما
فؤادٌ وَعَيْنٌ جَفْنُها الدَّهْرَ دَامِعُ

* * *

قيس وابن أبي عتيق

قال ابن أبي عتيق لقيس يومًا: أنْشِدني أحرَّ ما قلت في لُبنَى. فأنشده قوله:

وإنّـي لأهـوى الـنَّـوْمَ فـي غَـيْـرِ حِـيـنِـهِ
لَـعَـلَّ لِـقَـاءً فـي الـمَـنَـامِ يَـكُـونُ
تُـحَـدِّثُـنـي الأحْـلامُ أنّـي أرَاكُـمُ
فـيـا لَـيْـتَ أحْـلاَمَ الـمَـنَـامِ يَـقِـيـنُ
شَـهِـدْتُ بـأنّـي لَـمْ أحُـلْ عَـنْ مَـوَدَّةٍ
وأنّـي بِـكُـمْ لـو تَـعْـلَـمِـيـنَ ضَـنِـيـنُ
وأنّ فـؤادي لا يَـلِـيـنُ إلـى هـوَى
سِـوَاكِ وإنْ قـالـوا: بَـلَـى سَـيَـلِـيـنُ

فقال له ابن أبي عَتيق: لَقَلَّ ما رضِيتَ به منها يا قَيْس.

قال: ذلك جُهْدُ المُقِلِّ.

* * *

نهاية قيس لبنى

اختَلَفَ الرّواة في آخر أمر قيس ولُبْنَى، فذكر أكثرهم أنهما ماتا على افتراقهما، فمنهم من قال: إنه مات قبلَها وبلغها ذلك، فماتت أسفًا عليه. ومنهم من قال: بل ماتت قبله، ومات بعدها أسفًا عليها، وممن ذكر ذلك اليوسُفيّ عن عليّ بن صالح صاحب المُصَلَّى؛ قال: قال لي أبو عمرو المَدَنيّ:

ماتت لُبْنَى، فخرج قيسٌ ومعه جماعةٌ من أهله فوقف على قبرها فقال:

ماتتْ لُبَيْنَى فَمَوتُها مَوْتِي
هل تنفعَنْ حَسْرتي على الفَوْتِ
وسوفَ أبكي بكاءَ مكْتَئِبٍ
قضى حياةً وَجْدًا على مَيْتِ

ثم أكَبَّ على القبر يبكي حتى أغمي عليه؛ فرفعه أهلُه إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلًا لا يُفيق ولا يجيب مكلِّمًا ثلاثًا حتى مات، فدُفن إلى جنبها.

وذكر القَحْذَمِيّ وابن عائشة وخالد بن جمل أن ابن أبي عتيق صار إلى الحسن والحسين ابنَيْ عليّ بن أبي طالب وعبد اللّه بن جعفر رضي اللّه عنهم وجماعةٍ من قريش، فقال لهم: إنّ لي حاجة أخشى أن يَرُدَّني فيها، وإني أستعين بجاهكم وأموالكم فيها عليه.

قالوا: ذلك لك مُبْتَذَلٌ منّا. فاجتمعوا ليومٍ وعَدهم فيه، فمضى بهم إلى

زوج لُبْنى. فلما رآهم أَعْظَم مصيرَهم إليه وأَكْبره. فقالوا: لقد جئناك بأجمعنا في حاجة لابن أبي عَتيق.

قال: هي مقضيّة كائنة ما كانت. قال ابن أبي عَتيق: قد قضيتَها كائنةً ما كانت من مِلك أو مال أو أهل؟

قال: نعم.

قال: تهب لهم ولي لُبْنى زوجتَك وتطلّقها.

قال: فإني أُشهِدكم أنها طالقٌ ثلاثًا. فاستحيا القوم واعتذروا وقالوا: واللّه ما عرفنا حاجته، ولو علمنا أنها هذه ما سألناك إيّاها. وقال ابن عائشة: فعوَّضه الحسنُ من ذلك مائة ألف درهم وحملها ابن أبي عتيق إليه. فلم تزل عنده حتى انقضت عِدَّتها. فسأل القوم أباها فزوّجها قيسًا، فلم تزل معه حتى ماتا. قالوا: فقال قيس يمدح ابن أبي عَتيق:

جَـزَى الـرَّحْـمٰـنُ أفْـضَـلَ مـا يُـجَـازِي
عـلـى الإِحْـسَـانِ خَـيْـرًا مِـنْ صـديـقِ
فَـقَـدْ جَـرَّبْـتُ إخْـوانـي جـمـيـعًـا
فـمـا ألْـفَـيْـتُ كَـابْـنِ أبـي عَـتِـيـقِ
سَـعَـى فـي جَـمْـعِ شَـمْـلِـي بَـعْـدَ صَـدْعٍ
وَرَأيٍ حِـدتُ فـيـهِ عَـنِ الـطَّـرِيـقِ
وَأَطْـفَـأَ لَـوْعَـةً كـانَـتْ بِـقَـلْـبِـي
أغَـصَّـتْـنـي حَـرَارَتُـهـا بِـرِيـقـي

قال: فقال له ابن أبي عتيق: يا حبيبي . أَمْسِكْ عن هذا المديح؛ فما يسمعه أحد إلاّ ظنَّني قَوَّادًا[1].

---

(1) القوّاد: سمسار المرأة التي تتعاطى الدّعارة.

ومن روائع قصائده

تُبَكِّي على لُبْنَى وَأنْتَ تَرَكْتَها
وكُنْتَ كآتٍ غَيَّهُ وَهْوَ طائِعُ

فلا تَبْكِيَنْ في إثْرِ شَيْءٍ نَدَامةً
إذا نَزَعَتْهُ مِنْ يَدَيْكَ النَّوازِعُ

فَلَيْسَ لأمْرٍ حَاوَلَ اللهُ جَمْعَهُ
مُشِتٌّ ولا ما فَرَّقَ اللهُ جامِعُ

طمِعْتَ بِلَيْلَى أنْ تَرِيعَ وَإنَّما
تُقَطِّعُ أعْنَاقَ الرِّجَالِ المَطَامِعُ

كأنَّكَ لم تَغْنَهْ إذا لم تُلاَقِها
وإنْ تَلْقَها فالقَلْبُ رَاضٍ وقانِعُ

فَيَا قَلْبُ خَبِّرْني إذا شَطَّتِ النَّوى
بِلُبْنَى وَصَدَّتْ عَنْكَ ما أنْتَ صَانِعُ

أتَصْبِرُ لِلْبَيْنِ المُشِتِّ مَعَ الجَوَى
أَمَ انْتَ امْرُؤٌ ناسِي الحَيَاءِ فَجَازِعُ

فما أنا إنْ بانَتْ لُبَيْنَى بِهَاجِعٍ
إذا ما اسْتَقَلَّتْ بالنِّيَامِ المَضَاجِعُ

أُقَضِّي نهاري بالحَدِيثِ وبالمُنى
ويَجْمَعُني والهَمَّ باللَّيلِ جامِعُ

نَـهـاري نَـهـارُ الـنـاسِ حَـتّـى إذا بَـدا
لـيَ اللّـيْـلُ هَـزّتْـنـي إلـيـكِ الـمَـضـاجِـعُ
وقَـدْ نَـشَـأَتْ فـي الـقَـلْـبِ مِـنْـكُـمْ مَـوَدَّةٌ
كـمـا نَـشَـأَتْ فـي الـرّاحـتَـيْـنِ الأصـابـعُ
أحـالَ عـلـيَّ الـهـمُّ مِـن كُـلِّ جـانِـبِ
ودامـتْ فَـلَـمْ تـبـرَحْ عـلـيَّ الـفَـواجِـعُ
ألا إنّــمــا أبــكِــي لِــمــا هُــوَ واقــعٌ
فـهَـلْ جَـزَعـي مـن وَشْـكِ ذلـكَ نـافِـعُ
وقـد كـنـتُ أبـكـي والـنَّـوَى مـطـمـئِـنَّـةٌ
بِـنـا وبِـكـم مِـنْ عِـلْـمِ مـا الـبـيـنُ صـانِـعُ
وأهـجُـرُكُـمْ هَـجْـرَ الـبَـغـيـضِ وحـبُّـكُـم
عَــلــى كَــبِــدي مِــنْــهُ كُــلُــومٌ صَــوادِعُ
وأعــمِــدُ لــلأرْضِ الّــتــي لا أريــدُهــا
لِـتُـرْجِـعَـنـي يـومًـا إلـيـكِ الـرّواجِـعُ
وأشْـفِـقُ مِـنْ هِـجـرانِـكـمْ وتَـرُوعُـنـي
مَـخـافَـةُ وشْـكِ الـبـيـنِ والـشَّـمـلُ جـامِـعُ

* * *

من القصص التي رُويت حول الغُراب الذي قال فيه قيس:

ألا يا غُرابَ البَيْنِ قَدْ طِرْتَ بالّذي
أُحاذِرُ مِنْ لُبْنى، فَهَلْ أنتَ واقعُ؟

لُبْنى تقتل الغِرْبَان(1)

لمّا بلغَ قولُ قيس:

ألا يـا غُـرابَ الـبَـيْـنِ قَـدْ طِـرْتَ بـالّـذي
أُحـاذِرُ مِـنْ لُـبْـنـى، فَـهَـلْ أنـتَ واقـعُ؟

آلت على نفسها ألا ترى غُرابًا إلا قتلته، فكانت كلّما رأته، أو رأته خادمة لها، أو جارة، اشترته مِمَّن هو معه، وذبحته.

* * *

(1) مصارع العشاق 1/ 146.

عقوبة الغراب[1]

روى عبد الله بن محمَّد قال:

مرَرْتُ في بعض سككِ البصرة فسمعتُ استغاثة جاريةٍ تُضرَبُ، فتيمّمتُ الأبوابَ حتى وَقَفتُ على الباب الذي يخرُجُ منه الصّوت، فقلت: يا أهل الدار! أما تتَّقون الله؟ عَلامَ تضربون جارِيتكم؟ فقيل لي: ادخُلْ. فدخلتُ، فإذا امرَأةٌ كأنّ عنقها إبريقُ فضّة، جالسة على منصَّةٍ، وبَينَ يَديها غرابٌ مشدودٌ، وفي يدها عَصًا تضرِبه بها. قال: فكلّما ضرَبت الغُرَابَ صَاحتِ الجارِيةُ، فقلت: ما شأنُ هذا الغُراب؟ فقالت لي: أمَا سمعتَ قَوْلَ قيس بن ذَرِيح حيثُ يقول:

ألا يـا غُـرابَ الـبَـيْـنِ قَـدْ طِـرْتَ بـالّـذي
أُحـاذِرُ مِـنْ لُـبْـنـى، فَـهَـلْ أنـتَ واقـعُ؟

ألا وَقَعَ كما أمَرَه؟

فقلت: إنّ هذا الغَرابَ ليسَ هوَ ذالك الغرَاب.

فقال: نأخذ البرِيء بالسَّقيم حتى نَظفَرَ بحاجَتنا.

* * *

(1) مصارع العشاق 2/ 117.

عائشة بنت طلحة وغراب قيس بن ذَريح[1]

روى الشعبيّ قال:

مَرَّ بي مُصْعَب بن الزّبيرَ، وَأنا في المَسجد، فقال: يا شعبي، قم! فقمت. فَوَضَعَ يده في يدي وَانطَلق حتى دخَلَ القصرَ، فقصّرْتُ، فقال: ادخُل يا شعبي! فدخلَ حجرَةً، فقصَّرْتُ، فقال: ادخل يا شعبي! فدخلَ بيتًا، فقصَّرْتُ، فقال: ادخل، فدخلت، فإذا امرَأةٌ في حَجَلة، فقال: أتَدري مَن هذه؟ فقلت: نعم! هذه سيّدة نساء المسلمين، هذه عائشة بنتُ طلحة بن عبيد الله. فقال: هذه ليلى، وتمثل:

وَما زِلتُ في لَيلى لدن طَرَّ شارِبي
إلى اليَوْمِ أُخفِي حُبَّها وأُداجِنُ

وَأَحمِلُ في لَيلى لِقومٍ ضَغينَةً،
وَتُحمَلُ في لَيلى عليّ الضّغائِنُ

ثمّ قال لي: يا شعبي! إنّها اشتَهَت عليّ حديثَك، فحادِثْها، فخرج وتركها. قال: فجعلتُ أُنشِدها وتُنْشِدني، وَأُحَدّثها، وَتُحَدّثُني، حتى أنشَدتُها قَوْلَ قيس بن ذَريح:

(1) مصارع العشاق 2/ 164.

ألا يـا غُـرابَ الـبَـيْـنِ قَـدْ طِـرْتَ بـالّـذي
أُحـاذِرُ مِـنْ لُـبْـنـى، فَـهَـلْ أنـتَ واقـعُ؟
أتَـبْـكـي عَـلـى لُـبْـنـى، وأنـتَ قَـتَـلْـتَـهـا؟
فَـقَـدْ هَـلَـكَـتْ لُـبـنـى، فـمـا أنـتَ صـانِـعُ؟

قال: فلقد رَأَيْتها، وفي يدها غُراب تَنتِف رِيشَة، وتضربه بقَضِيبٍ وتقول: يا مشؤوم.

* * *

أبو السائب والغربان[1]

حدَّث الخليل بن سعيد قال:

مرَرْتُ بِسوق الطير، فإذا الناس قد اجتَمَعوا يَركبُ بعضُهُم بَعضًا، فإذا أبو السائِب قائمًا على غُرَاب يُبَاعُ قَد أخذ طرفَ رِدائِه وهو يقول للغُرَاب: يقول لك قيس بن ذَريح:

أَلا يـا غُـرابَ الـبَـيْـنِ قَـدْ طِـرْتَ بـالّـذي
أُحـاذِرُ مِـنْ لُـبْـنـى، فَـهَـلْ أنـتَ واقـعُ؟

أصلحك الله يا أبا السائب، ليس هذا ذاك الغُراب.

فقال: قد علمتُ، ولكن آخذ البريء حتى يقع الجريء.

* * *

(1) مصارع العشاق 1/ 146؛ والأغاني 9/ 175.

لُبْنى والغربان[1]

حدَّث عبد الجبَّار بن الأعلى قال: قال خندف بن سليم: حدَّثني أحمد ابن هود أنّ لبنى أمرَتْ غلامًا فاشترى لها أربعة غربان، فلمَّا رأتهنّ بكت وصرخت، وكتفتهنَّ، وجعلت تضربُهنَّ بالسوط حتى متن جميعًا، وجعلتْ تقول بأعلى صوتها:

لَقَدْ نادَى الغُرابُ بِبَيْنِ لُبْنَى
فَطارَ القَلْبُ مِنْ حَذَرِ الغُرابِ
وَقالَ: غدًا تَباعَدُ دَارُ لُبْنَى
وَتَنْأَى بَعْدَ وُدٍّ واقْتِرابِ
فَقُلْتُ: تَعِسْتَ وَيْحَكَ مِنْ غُرابٍ
وكانَ الدَّهْرَ سَعْيُكَ في تَبابِ
لَقَدْ أُولِعْتَ ـ لا لاقَيْتَ خَيْرًا ـ
بِتَفْرِيقِ المُحِبِّ عَنِ الحَبابِ

فدخل زوجها، فرآها على تلك الحال، فقال: ما دعاكِ إلى ما أرى.

قالت: دعاني أنّ ابن عمِّي وحبيبي قيسًا أمرهنَّ بالوقوعِ فلم يقعنَ حيث يقول:

(1) مصارع العشاق 1/ 146.

أَلا يـا غُـرابَ الـبَـيْـنِ قَـدْ طِـرْتَ بـالّـذي
أُحـاذِرُ مِـنْ لُـبْـنـى، فَـهَـلْ أنـتَ واقـعُ؟

فآليت أن لا أظفر بغراب إلاَّ قتلته. قال: فغضب وقال: لقد هممتُ بتخلية سبيلك.

فقالت: لوددتُ أنَّك فعلت، وأنّي عمياء، فوالله ما تزوَّجتك رغبةً فيك، ولقد كنتُ آليتُ أن لا أتزوَّج بعد قيس أبدًا، ولكن غلبني أبي على أمري.

* * *

ماتت في العِدّة[1]

حدَّث أيوب بن عباية قال:

خَرَجَ قيس بن ذَرِيح إلى المدينة يبيعُ ناقة له، فاشترَاها زَوْجُ لُبنى وَهوَ لا يَعرِفُه، فقال له: انطَلِقْ معي أُعطِك الثَّمن، فمضى معه. فلمّا فتحَ البابَ، فإذا لُبنى، وَقد استَقبلت قَيسًا، فلمَّا رآها وَلَّى هارِبًا، وَخرَجَ الرَّجلُ في أثَرِه بالثَّمن ليدفعَه إليه، فقال له قيس: لا تَركَب لي وَالله مَطِيّتينِ أبدًا.

قال: أنتَ قيس بن ذَرِيح؟

قال: نعم! قال: هذه لُبنى قد رَأيتَها، فقِفْ حتى أُخَيّرَها، فإن اختارَتكَ طَلَّقتُها. وَظَنَّ القُرَشي أنّ له في قَلبِها موضِعًا، وَأنّها لا تَفعلُ.

قال له قيس: افعَلْ.

فدخَلَ القُرشيّ عليها، فخيَّرَها، فاختارت قَيسًا. فطلّقها، وأقام قَيسٌ يَنتظرُ انقِضاء عِدّتِها ليتَزَوَّجها، فماتَت في العِدّة.

* * *

(1) مصارع العشاق 2/ 21.

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ

مِنّي وبيضُ الهِنْد تَقْطُرُ مِنْ دَمي

فَوَدَدْتُ تَقْبيلَ السُّيوفِ لأَنَّها

لَمَعَتْ كبارقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

عنترة بن شدّاد



عنترة بن شدّاد

(...- نحو 22 ق.هـ/ نحو 600 م)

عنترة بن شدّاد بن عمر بن معاوية بن قراد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد، أمه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها.

وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسًا، يوصف بالحلم على شدّة بطشه، وفي شعره رقةٌ وعذوبة. وكان مغرمًا بابنة عمه «عبلة» فقلّ أن تخلو له قصيدة من ذكرها. اجتمع في شبابه بامرئ القيس الشّاعر، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلًا، وقتله الأسد الرهيص أو جبّار بن عمر الطائي.

ينسب إليه «ديوان شعر» أكثر ما فيه مصنوع. و «قصة عنترة» خيالية يعدها الإفرنج من بدائع آداب العرب، وقد ترجموها إلى الألمانية والفرنسية، ولم يعرف واضعها[1].

* * *

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 5/ 92.

ومن أجمل أشعاره

باعي قصير

أعـاتِـبُ دَهْـرًا لا يـلـيـنُ لِـعـاتِـبِ
واطـلُـبُ أمْـنًـا مـن صُـروفِ الـنَّـوائِـبِ

خَـدَمْـتُ أنـاسًـا وَاتَّـخَـذْتُ أقـارِبًـا
لِـعَـوْنـي، ولـكـنْ أصـبَـحُـوا كـالـعَـقـارِبِ

ولـولا الـهـوى مـا ذَلَّ مِـثْـلـي لـمـثْـلِـهِـمْ
ولا خَـضَـعَـتْ أُسْـدُ الـفـلا لـلـثـعـالـبِ

فـيـا لَـيْـتَ أنَّ الـدَّهْـرَ يُـدْنـي أَحِـبَّـتـي
إلـيَّ كـمـا يُـدْنـي إلـيَّ مَـصـائـبـي

ولـيـتَ خَـيـالًا مـنـكَ يـا عَـبْـلَ طـارِقًـا
يَـرى فَـيْـضَ جَـفْـنِـي بـالـدُّمـوعِ الـسَّـواكِـبِ

مَـقـامُـكِ فـي جـوِّ الـسَّـمـاءِ مـكـانُـهُ
وبـاعـي قـصـيـرٌ عـن نَـوالِ الـكـواكـبِ

* * *

لا أُريدُ سواها

ما اسْتَمْتُ أُنثى نفسَها في موطنٍ
حتَّى أُوَفِّي مَهْرَها مَوْلاها[1]

أغْشى فتاةَ الحيِّ عندَ حليلِها
وإذا غَزا في الجيشِ لا أَغْشاهَا[2]

وأغضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي
حتَّى يُواري جارتي مأواها

إنِّي امرؤٌ سَمْحُ الخليقةِ ماجدٌ
لا أُتْبِعُ النَّفسَ اللَّجوجَ هَواها

وَلَئِنْ سَأَلْتَ بذاك عبلةَ خَبَّرتْ
أنْ لا أُريدُ من النساءِ سِواها

وأجيبُها إمَّا دَعَتْ لعَظيمةٍ
وأُغيثُها وأعفُّ عَمَّا ساها[3]

* * *

(1) ما استمت أنثى: أي لم أراودها عن نفسها.

(2) حليلها: زوجها.

(3) ساها: ساءَها.

شعرُها والظلام

خطفَ الظلامُ، كسارقٍ، من شعرِها
فكأنّما قرنَ الدُّجى بدَياجي[1]
أَبصَرْتُ ثمَّ هويتُ ثمَّ كتمتُ ما
ألقى، ولم يَعْلَمْ بذاكَ مُناجي
فوصلتُ ثمَّ قدرتُ ثمَّ عَفَفْتُ من
شرفٍ تَناهى بي إلى الإنضاجِ

* * *

(1) الدياجي: الظلمات، وفي هذا كناية عن سواد شعرها.

دموع في الخدود

دُمُـوعٌ فـي الـخُـدودِ لـهـا مَـسـيـلُ
وعَـيْـنٌ نـومُـهـا، أبـدًا، قَـلـيـلُ
وصَـبٌّ لا يَـقَـرُّ لـه قَـرارٌ
ولا يَـسْـلـو، ولـو طـالَ الـرَّحـيـلُ
فـكَـمْ أبـكـي بـإبـعـادٍ وبَـيْـنٍ،
وتُـشـجـيـنـي الـمَـنـازلُ والـطُّـلـولُ
وكَـمْ أبـكـي عـلـى إلْـفٍ شَـجـانـي
ومـا يُـغـنـي الـبُـكـاءُ ولا الـعَـويـلُ[1]
تـلاقَـيْـنـا، فـمـا أطـفـا الـتـلاقـي
لـهـيـبًـا، لا ولا بَـرَدَ الـغَـلـيـلُ[2]
طَـلَـبْـتُ مـن الـزَّمـانِ صـفـاءَ عَـيْـشٍ
وحَـسْـبُـكَ قـدرُ مـا يُـعـطـي الـبَـخـيـلُ
وهـا أنـا مَـيِّـتٌ، إن لـم يُـعـنِّـي
عـلـى أسـرِ الـهـوى الـصَّـبْـرُ الـجـمـيـلُ

* * *

(1) العويل: البكاء الشديد.

(2) أطفا: أطفأ.

لو كان قلبي معي

طلبت امرأة من بني كندة من عنترة أن يقيم معها في ديار قومها، ووعدته بأنها تزوّجه بمن يريد من بناتها، فقال:

لـو كـان قـلبي معي، ما اخترتُ غيركُم
ولا رضيتُ سواكم، في الهوى، بَدَلا
لـكـنَّـهُ راغبٌ فيمن يُعذّبه
فـلـيْسَ يقبلُ لا لَومًا ولا عذَلا[1]

* * *

(1) العذل: اللوم والعتاب.

دمعي شاهدي

إذا كان دمعي شاهدي كيفَ أجْحَدُ
ونارُ اشتياقي في الحَشا تَتَوقَّدُ

وهيْهَاتَ يَخفي ما أُكِنُّ من الهَوى
وثَوبُ سَقامي كُلَّ يومٍ يُجَدَّدُ[1]

أُقاتِلُ أشْواقي بصَبْري تَجَلُّدًا
وقَلبيَ في قَيْدِ الغرامِ مُقَيَّدُ

إلى اللَّهِ أشكو جَورَ قومي وَظُلْمَهم
إذا لم أجِدْ خِلاً على البُعد يَعْضُدُ[2]

خَليليَّ أمسى حُبُّ عبلَةَ قاتِلي
وبَأسي شديدٌ والحُسَامُ مُهَنَّدُ[3]

حَرامٌ عليَّ النَّومُ يا ابنَةَ مالكٍ
ومَنْ فَرْشَهُ جَمْرُ الغَضَا كيف يرقُدُ[4]

(1) أكِنّ: أستر. سقامي: مَرَضي.

(2) الجور: الظلم. يعضد: ينصر، يعين.

(3) الحسام: السيف.

(4) الغضا: نوع من الشجر يشتدّ لهيبه إذا اشتعل.

سـأنْـدُبُ حـتـى يـعـلَـمَ الـطـيْـرُ أنـنـي
حَـزيـنٌ ويَـرْثـي لِـي الـحَـمـامُ الـمُـغَـرِّدُ
وألـثِـمُ أرضًـا أنـتِ فـيـهـا مُـقـيـمـةٌ
لَـعَـلَّ لـهِـيـبـي مِـن ثَـرى الأرضِ يَـبْـرُدُ
رَحَـلْـتِ وقـلْـبـي يـا ابْـنَـةَ الـعـمِّ تـائـهٌ
عَـلَـى أثَـرِ الأظْـعَـانِ لـلـرَّكـبِ يُـنْـشِـدُ[1]
لـئـن يَـشْـمَـتِ الأعـداءُ يـا ابْـنَـةَ مـالـكٍ
فـإنّ ودادي مِـثْـلـمـا كـان يُـعْـهَـدُ

* * *

(1) الأظعان: جمع ظعينة، وهي المرأة المرتحلة.

السِّحْرُ من لحظاتها

ولولا فتاةٌ في الخيام مُقيمةٌ
لما اخترتُ قُرْبَ الدار يومًا على البعدِ

مُهَفْهَفَةٌ والسِّحرُ مِن لَحَظاتِها
إذا كَلَّمَتْ ميْتًا يقومُ من اللَّحْدِ

أشارتْ إليها الشمسُ عِند غُروبها
تقولُ إذا اسْوَدَّ الدُّجى فاطلُعِي بَعدي

وقال لها البدرُ المُنيرُ: ألاَ اسْفري
فإنّك مثْلي في الكَمالِ وفي السَّعدِ

فولَّتْ حياءً ثم أرْخَت لِثامَها
وقد نَثرَتْ من خَدِّهَا رَطبَ الورْدِ

وسَلَّتْ حُسامًا من سَوَاجي جُفونِها
كسيفِ أبيها القاطعِ المرْهَفِ الحدِّ[1]

تُقاتِلُ عَيْناها به وَهو مُغْمَدٌ
ومن عَجَبٍ أن يَقْطع السيفُ في الغِمْدِ

---

(1) سواجي: جمع ساجي، وهو الساكن.

مُـرَنَّـحـةُ الأعـطـافِ مَـهْـضـومـةُ الـحَـشـا

مُـنَـعَّـمَـةُ الأطـرافِ، مـائِـسَـةُ الْـقَـدِّ

يَـبـيـتُ فُـتـاتُ الـمِـسْـكِ تَـحْـتَ لِـثـامِـهـا

فـيـزْدَادُ مـن أنـفـاسِـهـا أَرَجُ الـنَّـدِّ[1]

* * *

(1) النّدّ: العنبر.

لَعوبٌ بألباب الرِّجال

لَـعـوبٌ بـألـبـاب الـرِّجـالِ كـأنـهـا
إذا أسْـفَـرَتْ بَـدْرٌ بـدا فـي الـمـحَـاشـدِ[1]
شَـكَـتْ سَـقَـمًـا كـيـمـا تُـعَـادُ ومـا بـهـا
سِـوى فَـتْـرةِ الـعـيـنـيـنِ، سَـقـمٌ لِـعـائـدِ[2]
مِـن الـبـيـضِ لا تَـلْـقـاكَ إلاَّ مَـصُـونـةً
وتَـمْـشـي كـغُـصْـنِ الـبَـانِ بـيـنَ الـولائِـدِ
كـأن الـثُّـريَّـا حـيـن لاحَـتْ عَـشِـيَّـةً
عـلـى نَـحـرِهـا مَـنْـظـومـةٌ فـي الـقـلائـدِ
حوَى كلَّ حُسْنٍ في الكواعبِ شخْصُها
فـلـيـسَ بـهـا إلاَّ عُـيُـوبُ الـحـواسـدِ

* * *

(1) الألباب: جمع لبّ، وهو القلب.

(2) السَّقَم: المرض. العائد: الزائر في المرض.

اطلبوا قتلي

عـذابُـكِ يـا ابْـنـةَ الـسَّـاداتِ سَـهْـلُ
وجَـورُ أبـيـك إنـصـافٌ وعَـدْلُ[1]
فَـجُـوروا واطـلُـبـوا قَـتْـلـي وظُـلْـمـي
وتَـعْـذيـبـي فـإنِّـي لا أمَـلُّ
ولاَ أَسـلُـو وَلا أشـفِـي الأعـادي
فـسـاداتـي لـهُـمْ فَـخْـرٌ وفَـضْـلُ
وأصْـبـرُ لـلـحَـبـيـبِ وإنْ جَـفـانـي
وَلـم أتـرُكْ هَـواهُ وَلـسْـتُ أسـلُـو
عَـسَـى الأيـامُ تُـنْـعِـمُ لـي بِـقُـرْبِ
وبَـعْـدَ الـهَـجْـرِ مُـرُّ الـعـيـشِ يَـحـلُـو

* * *

(1) الجور: الظلم.

أتاني طيفُ عبلة في المنام

أتــانـي طـيـفُ عَـبْـلـةَ فـي الـمَـنـامِ
فَـقَـبَّـلـنـي ثـلاثًـا فـي الـلِّـثـامِ
وودَّعَــنــي فَــأوْدَعــنــي لــهـيـبًــا
أُسَــتِّــرُهُ ويَــشْــعُــلُ فــي عِــظَــامــي
ولــولا أنَّــنــي أخــلُــو بــنَــفْـســي
وأُطــفــئُ بــالــدُّمــوعِ جَــوَى غَــرامــي
لَــمُــتُّ أسًــى وكَــمْ أشــكــو لأنّــي
أغــارُ عــلــيــكِ يــا بــدرَ الــتَّــمــامِ
أيــا ابــنــةَ مــالِــكٍ كَــيْــفَ الــتَّــسَــلّـي
وعَــهْــدُ هــواكِ مــن عَــهْــدِ الــفِــطــامِ
وكَــيــفَ أرومُ مــنــكِ الــقُــرْبَ يــومًــا
وحــولَ خِــبــاكِ آســادُ الأجــامِ[1]
وحَــقِّ هــواكِ لا داوَيْــتُ قَــلْــبــي
بــغــيــرِ الــصَّــبْــرِ يــا بِــنْــتَ الــكِــرامِ
عــلــيــكِ أيــا عُــبَــيْــلَــةُ كــلَّ يــومٍ
ســلامٌ فــي ســلامٍ فــي ســلامِ

---

(1) الأجام: جمع أجمة، وهي الغابة الملتفة.

يُسائل عن عبلة

لِـمَـنْ طـلـلٌ بـالـرَّقـمـتَـيْـن شَـجـانـي
وعـاثَـتْ بـهِ أيـدي الـبِـلـى فَـحَـكـانـي

أُسـائـلُـهُ عـن عَـبْـلـةٍ، فـأجـابَـنـي
غُـرابٌ بـه مـا بـي مِـنَ الـهَـيَـمـانِ[1]

يَـنـوحُ عـلـى إلـفٍ لـه، وإذا شَـكـا
شَـكـا بـتَـحـيـبٍ، لا بـنُـطـقِ لـسـانِ

ويَـنْـدبُ مِـنْ فـرطِ الـجَـوى فـأجـبـتُـه
بـحَـسْـرةِ قـلـبٍ دائِـمِ الـخَـفَـقـانِ[2]

ألا يـا غُـرابَ الـبَـيْـنِ لـو كُـنْـتَ صـاحـبي
قَـطَـعْـنـا بـلادَ الـلّـهِ بـالـدَّوَرانِ

عسى أن نرى مِـنْ نَـحْـوِ عَـبْـلـة مُـخْـبـرًا
بـأيَّـةِ أرضٍ أو بِـأيِّ مـكـانِ

وقـد هَـتَـفَـتْ فـي جُـنـحِ لـيـلٍ حَـمـامـةٌ
مُـغَـرِّدَةٌ تَـشـكـو صُـروفَ زَمـانِ

---

(1) الهيمان: الهيام والتيه.

(2) الجوى: الحبّ الشديد.

فقلتُ لها: لو كُنْتِ مِثلي حزينةً
بكَيتِ بدَمْعٍ زائدِ الهمَلانِ[1]
وما كُنْتِ في دَوْحٍ تَميسُ غُصُونُهُ
ولا خُضِبَتْ رِجلاكِ أحْمرَ قاني
يا عبلَ لو أنَّ الخيالَ يزورُني
على كلِّ شَهْرٍ مرَّةً لَكَفاني
لَئن غِبتِ عَنْ عَيْنيّ يا ابنةَ مالك،
فشَخْصُكِ عندي ظاهرٌ لِعياني

* * *

(1) الهملان: الجري، الانهمار.

يا طائر البان

هرب والد عبلة بابنته إلى بني شيبان، فقال عنترة:

يـا طـائِـرَ الـبـانِ قَـدْ هـيَّـجْـتَ أشـجـانـي
وزِدْتَـنـي طَـرَبًـا يـا طـائـرَ الـبـانِ
إن كـنـتَ تـنـدبُ إلـفًـا قـد فُـجِـعْـتَ بِـهِ
فَـقـد شَـجـاكَ الـذي بِـالـبَـيـنِ أشْـجـانـي
زِدْنـي مـن الـنَّـوح وَاسْـعِـدنـي عَـلـى حَـزَنـي
حـتـى تَـرى عَـجَـبًـا مـن فَـيْـضِ أجـفـانـي
وقِـفْ لـتَـنْـظُـرَ مـا بـي لا تَـكـنْ عَـجِـلًا
واحـذَرْ لِـنَـفْـسِـكَ مـن أنْـفـاسِ نـيـرانـي
وَطِـرْ لَـعَـلَّـك فـي أرضِ الـحِـجـازِ تـرى
رَكْـبًـا عـلـى عَـالِـجٍ أوْ دونَ نَـعْـمـانِ[1]
يَـسـري بـجـاريـةٍ تَـنْـهَـلُّ أدمُـعُـهـا
شـوقًـا إلـى وَطَـنٍ نـاءٍ وجـيـرانِ

* * *

(1) نعمان: وادٍ يقع بين مكّة المكرّمة والطائف.

سأُضْمِرُ وجدي

سـأُضـمِـرُ وجـدي فـي فـؤادي وأكْـتُـمُ
وأسْـهـرُ لـيـلـي والـعـواذلُ نُـوَّمُ[1]

وأطْـمـعُ مـن دَهـري بـمـا لا أنـالُـهُ
وألـزمُ مـنـه ذُلَّ مَـنْ لـيـسَ يـرحـمُ

وأرجـو الـتـداني مِـنـكِ يـا ابـنـةَ مـالـكٍ
ودونَ الـتَّـدانـي نـارُ حَـرْبٍ تَـضَـرَّمُ

فَـمُـنِّـي بطَـيْـفٍ مـن خيـالـكِ واسألـي
إذا عـادَ عـنـي كـيـفَ بـاتَ الـمُـتَـيَّـمُ

ولا تَـجْـزَعـي إنْ لَـجَّ قـوْمُـكِ فـي دَمـي
فـمـا لـيَ بـعْـدَ الـهَـجْـرِ لَـحـمٌ ولا دَمُ

ولـم يـبْـقَ لـي يـا عـبـلَ شَـخْـصٌ معَـرَّفٌ
سـوى كَـبِـدٍ حَـرَّى تـذوبُ فـأسـقـمُ
وإنْ عِـشْـتُ مـنْ بَـعـدِ الـفـراقِ فـمـا أنـا
كـمـا أدَّعـي أنـي بـعَـبْـلَـةَ مُـغْـرَمُ

---

(1) العواذل: اللائمون.

وإنْ نـامَ جَـفْـنـي كـانَ نـومـي عـلالـة
أقـولُ: لَـعَـلَّ الـطَّـيـفَ يَـأْتـي يُـسَـلِّـمُ[1]
أَحِـنُّ إلـى تِـلـكَ الـمـنـازلِ كـلّـمـا
غـدَا طـائـرٌ فـي أيـكـةٍ يـتـرنَّـمُ

* * *

(1) علالة: خفيفاً. الطيف: الخيال.

زار الخيال

زارَ الخيالُ خيالُ عَبلَةَ في الكَرى
لِمُتَيَّمٍ نشوانَ مَحلولِ العُرى[1]
فنَهَضتُ أشكو ما لقيتُ لبُعدها
فَتَنَفَّسَتْ مِسكًا يخالطُ عَنْبَرا
فضَمَمْتُها كَيما أقبِّلَ ثَغرَها،
والدَّمعُ مِنْ جَفنيَّ قد بلَّ الثَّرى
وكَشَفْتُ بُرْقُعَها فأشرقَ وجهُها
حتى أعادَ اللَّيلَ صُبحًا مُسفِرا[2]
عَربِيَّةٌ يهتزُّ لِينُ قوامِها
فيخالُهُ العُشَّاقُ رُمحًا أسْمرا
مَحجوبَةٌ بِصَوارمٍ وذَوابلٍ
سُمْرٍ ودونَ خبائِها أُسْدُ الشَّرى
يا عَبْلَ حُبُّكِ في عِظامي مَعْ دَمي
لمَّا جرت روحي بِجِسْمي قدْ جرَى

* * *

(1) الكرى: النوم. متيّم: شديد الحب. محلول العرى: مريض من الحبّ.

(2) البرقع: غطاء وجه المرأة.

لأجلك

أحبّ بني عبسٍ ولو هَدَروا دمي
لأجلِكِ يا بنتَ السَّراةِ الأكارمِ[1]
وأَحمِلُ ثقلَ الضَّيْم والضَّيْمُ جائرٌ
وأُظهِرُ أني ظالمٌ وابنُ ظالمِ[2]

* * *

(1) السَّراة: وُجَهاء القوم.
(2) الضَّيْم: الظلم.

ضحكتْ عبيلة

ضـحـكـتْ عُـبَـيْـلـةُ إذ رأتـنـي عـاريًـا
خَـلَـقَ الـقـمـيـصِ وسـاعـدِي مَـخْـدوُشُ[1]
لا تَـضْـحـكـي مـنـي، عُـبـيـلـةُ، واعْـجـبـي
مـنـي إذا الـتـفَّـتْ عـلـيَّ جُـيُـوشُ
ورأيـتِ رُمْـحـي فـي الـقُـلـوبِ مُـحَـكَّـمًـا
وعـلـيـهِ مـنْ فَـيْـضِ الـدِّمـاءِ نُـقُـوشُ
ألـقَـى صـدورَ الـخـيـل وهْـي عـوابـسٌ
وأنـا ضَـحُـوكٌ نـحْـوهـا ويَـشُـوشُ
إنّـي أنـا لَـيْـثُ الـعـريـنِ ومَـنْ لـه
قـلْـبُ الـجـبـانِ مُـحـيَّـرٌ مـذهُـوش
إنّـي لأعـجـبُ كـيـفَ يُـبْـصِـرُ صـورتـي
يـوم الـقـتـالِ مُـبـارزٌ، ويـعـيـشُ

* * *

(1) خلق القميص: قميصي بالية.

جفُونُ العذَارى

كان عنترة قد خرج إلى العراق، طالبًا النوق العصافيرية وهي المهر الذي طلبه والد عبلة ابنة عمه، فأُسِر هناك، وتذكّر، وهو في سجن المنذر بن ماء السماء، قومه، فقال:

جُفُونُ العذَارى مِنْ خِلال الْبَرَاقِعِ
أحدُّ من البِيضِ الرِّقاق القواطِعِ[1]

إذا جُرِّدتْ ذَلَّ الشُّجاعُ وأصبَحَتْ
مَحاجِرُهُ قَرحى بِفَيْضِ المدَامِعِ[2]

سَقَى اللهُ عمِّي من يدِ الموتِ جرعَةً
وشُلَّتْ يدَاهُ بعدَ قَطْعِ الأصابعِ

كما قادَ مِثْلي بالمُحالِ إلى الرَّدى،
وعَلَّقَ آمالي بذَيْلِ المَطامعِ[3]

لقَدْ وَدَّعَتْني عَبلةٌ يوم بَيْنِها
وَدَاعَ يَقينِ أنَّني غيرُ راجعِ

(1) البراقع: جمع برقع، وهو غطاء وجه المرأة. البيض: السيوف.

(2) محاجره قرحى: جفونه فيها قروح، أي جروح.

(3) الرّدى: الموت.

وناحَتْ وقالتْ: كيف تُصْبحُ بعدَنا
إذا غِبْتَ عَنَّا في القِفار الشَّواسعِ[1]
وحقِّكَ لا حاولتُ في الدَّهر سَلْوَةً
ولا غَيَّرَتْني عَنْ هواكَ مَطَامِعي
فكُنْ واثقًا مِنِّي بحُسْنِ مَوَدَّةٍ
وعِشْ ناعمًا في غِبْطَةٍ غيرَ جازعِ[2]
فقلْتُ لها: يا عَبلُ إني مسافرٌ
ولو عَرَضَتْ دوني حُدُودُ القواطعِ[3]
خُلِقْنا لهذا الحُبِّ من قبْل يومِنا
فما يَدْخُل التَفْنِيدُ فيهِ مَسامعي
فَيَا نَسَمَاتِ البَانِ، بالله خبِّري
عُبَيْلَةَ عنْ رَحلي بأيِّ المَواضِعِ
ويَا بَرْقُا بلِّغها، الغدَاةَ، تحيَّتي
وحيِّ دِياري في الحِمَى ومَضاجعي
بِحَقِّ الهوَى لا تَعْذِلُونيَ، واقْصِرُوا
عَنِ اللَّوْمِ إنَّ اللَّومَ ليسَ بنافِعِ
وكَيْفَ أُطيقُ الصَّبْرَ عمَّنْ أُحبُّه
وقد أَضْرَمَتْ نارَ الهوى في أضالعي

* * *

(1) القفار الشواسع: الصحاري الواسعة.

(2) جازع: خائف.

(3) حدود القواطع: حدود السيوف.

فضَّلتُ البعاد

وفَضَّلْتُ البِعادَ على التَّداني
وأَخفَيْتُ الهوى وكَتَمْتُ سِرِّي
ولا أُبقي لِعُذّالي مَجالًا
ولا أَشفي العدوَّ بِهَتْكِ سِتْري

* * *

نار الغرام في كبدي

بَرْدُ نَسيم الحجاز في السَّحَرِ
إذا أتاني بريحِهِ العَطِرِ
أَلذُّ عِندي ممَّا حَوَتْهُ يَدي
مِنَ اللآلي والمالِ والبِدَرِ
ومُلْكُ كِسْرَى لا أشتَهِيهِ إذا
ما غابَ وجهُ الحَبيبِ عن نَظَري
يا عبلَ نارُ الغَرامِ في كَبِدي
تَرمي فؤادي بأسْهُمِ الشَّرَرِ

يـا عَـبْـلَ لـولا الـخـيـالُ يـطـرُقُـنـي
قَـضَـيْـتُ لـيـلـي بـالـنُّـوحِ والـسَّـهَـرِ

* * *

ذكرتُ صبابتي

ذكـرتُ صَـبـابـتـي مـن بـعـدِ حـيـنِ
فـعَـاد لـيَ الـقـديـمُ مـن الـجُـنُـونِ
وحَـنَّ إلـى الـحِـجـازِ الـقـلْـبُ مـنِّـي
فـهـاجَ غـرامُـهُ بـعـدَ الـسُّـكـونِ
أيـطـلـبُ عَـبْـلـةَ مـنـي رجـالٌ
أقـلُّ الـنَّـاسِ عِـلْـمًـا بـالـيَـقـيـنِ
أيـأخـذُ عَـبـلـةَ وغـدٌ ذمـيـمٌ
وَيَـحْـظـى بـالـغِـنـى والـمـالِ دونـي
فـكـم يـشـكُـو كـريـمٌ مـنْ لـئـيـمٍ
وكـم يَـلْـقـى هِـجـانٌ مـن هَـجـيـنٍ[1]
وَمَـا وَجَـدَ الأعـادي فِـيَّ عَـيْـبًـا
فـعـابـونـي بِـلَـوْنِ فـي الـعُـيـونِ

(1) هجان: رجل حسيب. هجين: لئيم.

الفهرس

جميل بثينة

قيس لُبْنى

عنترة بن شدّاد